

عصر يضطرب

شهد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري انحطاط الخلافة العباسية ، وانتهيار سلطان الخلفاء ؛ فمُنذ قتل المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين بيد الأتراك ، الذين جاء المعتصم بهم ليكونوا عضده ، بدل الفرس والعرب ، شعروا بقوتهم ، واعتزوا بتلك القوة ، واستبدوا بالأمر كله ، يولون من يستطيعون الحجر عليه ، والاستئثار بالملك دونه . ولم ينفع الخلافة ، ولم ينهضها من كبوتها أن استطاع بعض الخلفاء أن يستعيد قليلا من المجد الغابر ، ويحفظ هيبة ذلك الملك العتيد ، فإن الأمر ما كان يلبث أن يرجع إلى خليفة ضعيف ، تعود معه الحال إلى أسوأ مما كانت عليه ، وزاد الأمر شراً إلى شر ظهور المنافسات بين ذوى النفوذ ، فسكان كل يكيد للآخر شر كيد ، حتى يورده موارد المملكة ، من غير نظر إلى مصلحة الأمة . وما إن آلت الخلافة للمقتدر سنة خمس وتسعين ومائتين ، وكان صبيا — حتى أصبحت أمه صاحبة الحول والسلطان تعين الوزراء ، وتقبل استقلالهم وتعزلهم إذا أرادت . ولم يكن اختيار الوزير مبنياً على جدارة أو استحقاق ، بل كان صاحب الخطوة هو من يدفع أكبر رشوة ، ويتعهد بأن يقدم لأم الخليفة ، ورجال القصر وكبار المستخدمين أعظم الأرزاق ، فإذا وصل أحد إلى هذا المنصب ، صارت يده ويد رجاله وأولاده مطلقة ، يصادر من يشاء ، ويسجن من يشاء ، ويمذب من يشاء ، فإذا عجز عما تمهد به ، وجدت الوشاية سبيلها فيه ؛ فأقيل من منصبه ، وجىء بغيره ، ممن قدم أكبر المروض ، ولو كان غير صالح للوزارة ؛ فكانت خلافة المقتدر ، كما قال المرحوم محمد الخضرى بك ، « في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية ؛ لأنه حكم فيها النساء والخدم ، وبذر في الأموال ، وكان يعزل الوزراء ، ويولى غيرهم ، بما يقدم له

ولأمه ولقهرماتته وخدمته من الرشا ، ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه ؛ فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ، ثم حاجة من ولاءه ، لا يسألون أجاأت تلك الأموال من ظلم أو عدل ، وهذا نهاية الفساد في الدولة ، وهو المؤذن بنجرابها واضمحلالها . و انتهى الأمر بقتل للمقتدر ، نتيجة للمنافسة التي كانت بين اثنين من كبار الدول ، وهما : مؤنس الخادم القائد العام للجيش ، والوزير الحسين بن القاسم ، إذ ضرب به في المعركة أحد جند مؤنس ، فسقط الخليفة على الأرض ، وذبح ، ورفع رأسه على خشبة ، والجند حوله يكبرون ويلعنونه ، وقد أخذ جميع ما عليه حتى سراويله ، وترك مكشوقا إلى أن صر به رجل ستره ، وحفر له في موضعه ، ودفنه ، ولم يفكر فيه أحد بعد .

وأجلس على عرش الخلافة من بعده القاهر ، سنة عشرين وثلاثمائة ، وكان شريرا خبيث النية ، فكاد له رجال دولته ؛ حتى خلعه ، بعد سنة وستة أشهر من ولايته .

وأتى القواد والخدم بالراضى بن المقتدر ، وأصعدوه إلى سرير الملك ، وظلت الحال في عهده تزيد خللا واضطرابا ، فكان من حوله من كبار رجال الدولة يتنافسون ويقتتلون ، و انتهى الأمر بأن استدعى الراضى محمد بن رائق أحد عماله ، ومنحه لقب أمير الأمراء ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر ، فانتقل إليه السلطان الفعلى في البلاد ، وصارت الأموال تجبي إليه ، فيتصرف فيها كما يريد ، ويطلق للخليفة منها ما يراه .

كان هذا المنصب الجديد مثار الطمع في نفوس الأقوياء من رجال الدولة ، تدور حوله المؤامرات ، وتنصب له الشراك ، و انتهت مدة الراضى في منازعات سياسية بين هؤلاء الطامعين ، وكذلك انتهت من بعده مدة الخليفة المتقى لله ، الذي لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان في إمارته بالموصل ، وخلق عليه لقب أمير

الأمراء سنة ثلاثين وثلاثمائة . وقد حارب ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة إلى جانب المتقى ، ولكن توزون أكبر قواد الديلم استطاع أن ينال منصب أمير الأمراء ، وقد حلف للمتقى أن يكون طائعاً له ، ثم لم يلبث أن سمل عينيه ، وخلعه ، وأقام مقامه المستكفي بالله ، وفي عهده دخل معز الدولة بن بويه بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وحلف يمين الولاء للخليفة ، وتولى هو السلطنة في بلاد العراق . ويعد هذا اليوم تاريخ سقوط السلطان النهائي من أيدي الخلفاء ، وصيرورة الخليفة رئيساً دينياً ، لا أمراً له ولا نهى ولا وزير ، وإنما له كاتب يدبر شؤنه المالية ، وصار الأمر لمعز الدولة ، يتخذ لنفسه من الوزراء من يشاء .

ولم يبق المستكفي في الخلافة بعد دخول معز الدولة سوى أربعين يوماً ؛ إذ اتهم بأنه يدبر لخلع السلطان ، فدخل عليه اثنان من أمراء الديلم فتناولا يده ، وظن أنهما يريدان تقبيلها ، فدها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته في عنقه ، وساقاه ماشياً إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخليفة ، حتى لم يبق بها شيء ، واستدعى المطيع لله ، وولى الخلافة ، وظل ، حتى خلع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، لا نفوذ له ولا أمر ، وإنما السلطان والسطوة لبني بويه .

كان ضعف الحكومة المركزية في بغداد سبباً في تفكك أجزاء هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ؛ فكان كل حاكم يطمع في أن يستقل بما تحت يده ، وكل قوى يبني أن يؤسس له ملكاً في ناحية من نواحي هذا السلطان المريض .

ورأى عبد الرحمن الناصر ما آلت إليه حال بغداد ، فسمى نفسه أمير المؤمنين ، وصارت بلاد إفريقية للعبديين ، وكان الحاكم منهم يلقب بأمير المؤمنين أيضاً ، ومصر والشام للإخشيديين ، والجزيرة وحلب والثغور للحمديين ، والعراق للديلم ، وعمان وبلاد البحرين واليمامة للقرامطة ، وفارس والأهواز والجليل والري لبني بويه ، وخراسان لآل ساسان ، وكثيراً ما شبت الحروب بين بعض

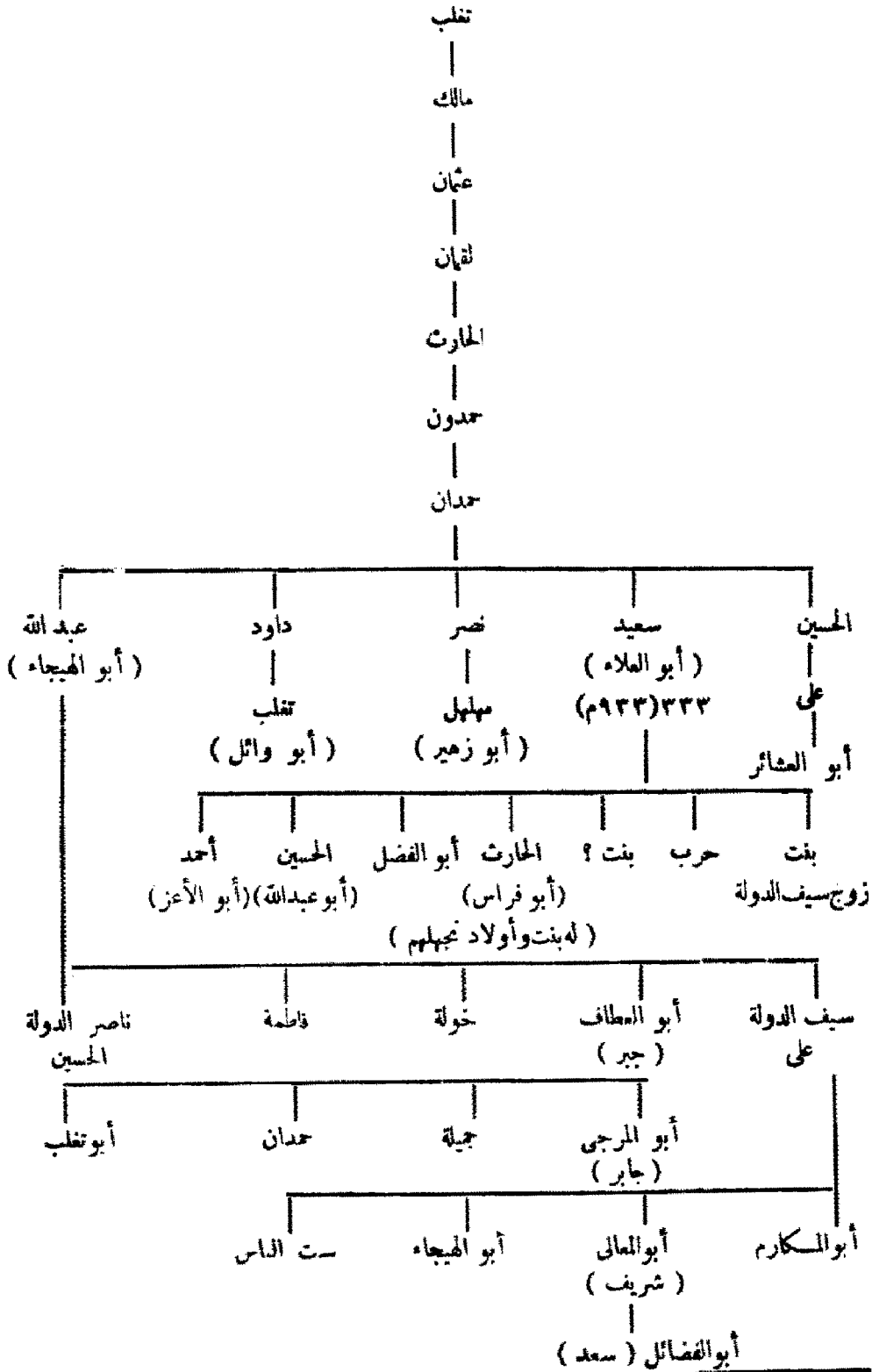
هؤلاء الولاة وبعض ، مما أضعف قوتهم جميعاً ، فاستهان بأمرهم الروم ، وأغاروا على الثغور الإسلامية ، ونهبوا ما فيها وسبوا ، وكثيراً ما كان أهل هذه الثغور ، يقاسون العنت والمشقة ، فيلجئون إلى بغداد ، يستغيثون فلا يغاثون ، فيعودون من جديد ، لتحمل عذاب شديد .

ولقد تغلب سيف الدولة ابن عم أبي فراس على الثغور الإسلامية ، وأخذ على عاتقه صيانتها ، فكان ينال من الروم ، وينالون منه ، ولكن أنى له أن يرد عدواً ، كانت الخلافة كلها تعنى به وتستعد له ، ومع ذلك لا نستطيع أن ننسى ما قام به هذا القائد الجريء ، من دفاع عن تخوم الإسلام وحدوده ، وأنه كان عقبة كأداء في سبيل العدو المغير .

وسوف نرى أثر تلك الحالة السياسية في حياة أبي فراس وشعره ، فيما سنذكره في الفصول القادمة .

بنو حمدان

لي تغلب ، وهذا جدول (١) بهم .



(١) هذا الجدول من بلاشير في كتابه عن المتنبي ص ١٢٥ ومن ديوان أبي فراس

أسرة تنهض

تنحدر الأسرة الحمدانية من أصل عربي صريح ، هو قبيلة تغلب بن وائل ، وكانت قبيلتنا : تغلب وبكر ، أعظم قبائل ربيعة شأنا في بلاد العرب لعهدها القديم^(١) ، وعرفت قبيلة تغلب في جميع أدوار تاريخها بالصرامة وقوة الشكيمة ، والبسالة والأنفة ، والتاريخ يحفظ من أيامها في الجاهلية حرب البسوس التي شبت بينها وبين بكر ، ويذكر لها من حميتها في الإسلام أنها قبل أن تدخل فيه لم ترض كلمة الجزية ، وقال بنوها لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ، لا تذلنا بين العرب باسم الجزية ، واجعلها صدقة مضاعفة » ففعل ، ثم كان منها في الإسلام بعد أن دخلت فيه بيوتات ناهضة منها البيت الحمداني الجيد .

وخرج من تغلب عدد من مشهورى الشعراء ، كان منهم في الجاهلية مهلهل ابن ربيعة أخو كليب ، ويقول عنه الأصمعي : « إنه أول من نظم القصيدة في ثلاثين بيتا » ، وفي الإسلام الأخطل والقطامي ، وغير هؤلاء ممن ذكرهم ابن قتيبة ، وابن دريد ، وابن خلدون ، وصاحب العقد .

وكانت قبيلة تغلب تنزل هضاب نجد والحجاز ، وتنقل في الجزيرة العربية ، شأن قبائل العرب ، وأخيراً استقر المقام بها في المنازل التي عرفت بديار ربيعة في الجزيرة ، شمالي بلاد العراق بين دجلة والفرات ، وعلى تخوم الشام ، وعاشت جماعة من تغلب في مضارب على الضفة اليمنى ، لنهر الفرت عند منبعج والرصافة وقنسرين ودمشق^(٢) .

إلى هذه القبيلة ينتسب حمدان مؤسس أسرة شاعرنا ، تلك الأسرة التي لم يغب عن ذهنها يوما فخرها بهذا النسب ، وما كان لأبائها في الجاهلية والإسلام ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٣٢٤ . (٢) للرجع السابق ص ٣٢٦ .

من كرامة ، وكثيراً ما كانت تسمى أبناءها باسم هؤلاء الآباء تخليداً لذكراهم ،
فهذا نصر بن حمدان يسمى ابنه مهلهلاً ، وداود أخو نصر يسمى ابنه تغلب أبا وائل ،
وناصر الدولة يدعو ابنه أبا تغلب .

وكان حمدان ، رجلاً له بين أبناء قبيلته شأن مرموق ، وزعامة تبعث في
نفسه الشعور بالقوة والتفوق ، فطمح إلى أن يستأثر بالحكم في دياره ، وشجعه
ما رآه من ضعف الدولة العباسية ، الذي وصفناه ، فأعلن استقلاله ، واعتصم بقلعة
ماردين سنة إحدى وثمانين ومائتين من الهجرة ، وكان المعتضد هو الجالس على
العرش في ذلك الحين ، فاستطاع بعسر ومشقة أن يطفى ثورة حمدان ، ولكنه
رأى أن ينتفع بهذه القوة الجديدة يدعم بها ملكه ، فاختر الحسين بن حمدان
ليحارب أحد الخارجين عليه من القرامطة ، واستطاع الحسين أن يتغلب على
هذا الخارج ، ويظفر برضا الخليفة ، ولما تولى المكتفي بالله الحكم ظل على ثقته
بآل حمدان ، فجعل الحسين على قيادة الجيش ، وولى أخاه أبا الهيجاء الموصل
وأعمالها ، وندبه لإخماد ثورة كانت قائمة بالقرب من الموصل فنجح في إخمادها .

لم تكن العلاقة بين الأخوين كما ينبغي أن تكون ، بل كان التنافس
بينهما شديداً ، حاداً ، فهذا العطف الذي ناله أبو الهيجاء قد أوغر صدر أخيه
الحسين ، فأضمر الشر للخلافة ، وما إن تولى المقتدر الحكم حتى اشترك في المؤامرة
التي دبرت لخلعه ، ولما انكشف أمرها فر الحسين ، وأمر الخليفة أخاه أن يتعقبه ،
ثم توسط وزير المقتدر وشفع له عند الخليفة ، فعفا عنه ، وعاد إلى بغداد .

ظلت علاقة الأخوين بالمقتدر مضطربة متغيرة ، فقد يرضى عن الحسين ،
ويؤليه ديار ربيعة فيعتصم هذا بولايته ، ولا يعطى الخليفة شيئاً من مال الضرائب ،
فيفض عليه الخليفة ، ويرسل إليه جيشاً يقوده أسيراً ، فتثور نفسه ويشترك في
مؤامرة ضد الخليفة تنتهي بقتله .

وكان حينئذ يسخط على أبي الهيجاء ، ويمرله عن ولاية الموصل ، فيأبى أن
يخضع ، ويحارب ، وينتصر على الخليفة ، وحينئذ يرضى عنه ، ويؤليه قيادة الجيوش

ضد التأثيرين هنا وهناك ، وينتهي أمره بأن يقع صريعاً في معركة كان يدافع فيها عن المقتدر ، فحفظ له الخليفة هذا الجليل ، وأقر ابنه ناصر الدولة على ولاية الموصل ؛ فاستقل بها ؛ ولم يعياً بسلطان المقتدر ، ولا بسلطان الخلفاء الذين أتوا من بعده . وقد غاظ هذا الاستقلال الخليفة الراضى ، ولكن لم تكن لديه القوة التى ترغم ناصر الدولة على الخضوع ؛ فلجأ إلى سياسة التفريق بين أبناء الأسرة ، يتخذ من بعضهم آلة يضرب بها البعض الآخر ، فأغرى عم ناصر الدولة : سعيد بن حمدان ، وهو والد أبى فراس ، بإمارة الموصل ، فسار إليها ليأخذها من ابن أخيه . وكان ناصر الدولة رجلاً صلب الفؤاد شجاعاً ، لم يكذب يلتقى بعمه حتى دبّر له مكيدة أودت بحياته ، ولم يستطع الراضى أن يأخذ الموصل من ناصر الدولة ، برغم كل ما بذله من جهود . ثم عادت الصلة وثيقة بينه وبين الخلافة عندما توفى الراضى ، وارتقى المتقى إلى العرش ، فقد منحه لقب أمير الأمراء ، وأصهر إليه ، فتزوج ابنته بنت ناصر الدولة ، وبهذه المصاهرة صار الحمدانيون فى مأمن من الزعازع ، وأصبحوا أكبر عضد للخليفة ، يستعين بهم على الخارجين عليه ، ويحصدون في إمارتهم الأمن والاطمئنان ، إذا عز عليه أن يجدها فى عاصمة ملكه .

ولما مات المتقى ، ودخلت الخلافة العباسية تحت حكم آل بويه ، اضطدمت هذه السلطة الجديدة بناصر الدولة وأولاده ، وصارت الحرب سجالاً ، حتى تنازع أولاد ناصر الدولة أمرهم بينهم ، وصاروا شيعاً ، فاستطاع بذلك عضد الدولة البويهى أن يطرد أبا تغلب بن ناصر الدولة ، ويدخل الموصل وديار ربيعة تحت حكمه .

فى الوقت الذى كان ناصر الدولة يحكم فيه الموصل ، أسس أخوه سيف الدولة فى أرض حلب إمارة عربية مجيدة .

وكان سيف الدولة قد خاض غمار معارك كثيرة ، للدفاع عن أسرته ضد الخلافة حيناً ، وحيناً آخر للدفاع عن الخلافة ضد أعدائها ، ولكن نفسه العالية

لم تنفع بذلك . ورغبت في أن تنال ولاية وتؤسس ملكا ؛ فتلفت يبحث عن بقعة صالحة لهذا الملك ، ولم يشأ أن ينازع أخاه ملك الوصل ، وأخوه ثابت القدم فيه ، فبم نحو الغرب ، وكان قومه من تغلب منتشرين في بقاعه ، ومضى إلى حلب ، وشجعه على أن ينالها اضطراب الأمر فيها ، وتنازع الولاة أمر حكمها ، فاتزعمها من يد عامل الإخشيد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، ثم مد سلطانه على شمال سورية ، وبعد حرب بينه وبين الإخشيد تصالحا ، على أن يحتفظ بسوريا الشمالية ، وأن يترك مدينة دمشق للمصريين .

هذا ، ويقول ابن خلكان في ترجمة سيف الدولة : ورأيت في تاريخ حلب أن أول من ولي حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد ، وهو أخو أبي فراس ، وأنه تسلمها في رجب ، سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكان شجاعا موصوفا ، وفيه يقول أبو النجم :

وإذا رأوه مقبلا قالوا : ألا . . . إن المنايا تحت راية ذاكا

وإذا صح ما رواه ابن خلكان فسيف الدولة لم ينتزع حلب من يد الإخشيد ، وإنما انتزعا من يد ابن عمه . وليس ذلك بمستبعد ؛ فإن النزاع كثيرا ما كان يتقد بين أبناء هذه الأسرة . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد أسس سيف الدولة في شمال سورية دولة مستقلة ، حفظ لها التاريخ ما قامت به من جهود ، في سبيل الدفاع عن حمى العرب ضد الروم ، الذين حاولوا مرارا أن يستولوا على ذلك الحى ، فوقف لهم سيف الدولة وقفات مشرفة ، وأنشأ جيشا كبيرا حاربهم به ، فكان — كما قلنا — ينال من أعدائه ، وينالون منه . ويأسر منهم ، ويأسرون منه ، وفي كثير من الأحيان يحدث الفداء بين الأسرى . وقد قضى هذا الأمير معظم أيام ولايته في هذه الحروب ، والاستعداد لها ، وكثيرا ما ألهمت وقائعه الشعر ، وأوحت برائمه وخالده ، وسجلها وتغنى بها أعظم شعراء هذا العصر : المتنبي وأبو فراس .

آل ملك حلب من بعد سيف الدولة إلى ابنه : أبي المعالي شريف ، وقد حاول خاله أبو فراس أن يستبد بجزء من هذا الملك ، ولكنه غلب على أمره وقتل ، كما ستحدث بعد ، ثم آل هذا الملك بعد أبي المعالي إلى أبي الفضائل سعد : حفيد سيف الدولة ، وبموته انتهى ملك آل حمدان ، بعد أن خلدوا لهم في التاريخ ذكرا .

من هذا العرض الموجز لتاريخ الأسرة الحمدانية نلمس الصدق في قول أبي فراس ، حين يصفها بقوله :

وللوراث إرث أبي وجدى : جياذ الخيل ، والأسل الطوال
وما تجنى سراة بنى أئينا سوى ثمرات أطراف العوال
ممالكنا مكاسبنا ، إذا ما توارثها رجال عن رجال
ففي الحق أنهم عاشوا حياتهم في جهاد وجلاد ، وكونوا ممالكهم برماحهم
وسيوفهم ، ولم يرثوها عن آبائهم وأجدادهم . ولقد ملكت هذه الفكرة نفس
أبي فراس ، فأمن بأن الملك استطاع أن يبنى بالسيوف ، ويؤخذ بأطراف الرماح ،
وكان لهذه العقيدة أثرها في أن أوردته موارد التلف كما سيأتى .

كان في استطاع هذه الأسرة أن تنشئ لنفسها ملكا ثابت الأساس ،
مستقر الدعائم ، لا تزعزعه الأعاصير ، لو أنها كانت كتلة واحدة مجتمعة الأمر ،
ولكن الذى أضعفها وذهب بريحها ، ولم يبقها على وجه التاريخ فتية قوية ، فلم
يلع اسمها سوى قرن واحد تقريبا — هو هذا التنافس الذى كان شديدا عنيفا
بين أبناء هذه الأسرة ، وقد رأينا أثارة من هذا الخلاف فيما مضى بين الحسين
وأخيه عبد الله ، وبين سعيد وابن أخيه ناصر الدولة ، وبين أبناء ناصر الدولة ،
وبين أبي فراس وابن سيف الدولة : أبي المعالي ، فكل واحد من أبناء هذه الأسرة ،
كان يحاول أن يكون لنفسه ملكا مستقلا عن صاحبه ، أو أن يأخذ الملك غصباً
من يد أقاربه ، ولو أن سيف الدولة انضم إلى أخيه ناصر الدولة ، وكونا من

إمارتهما إمارة واحدة ، وبذلا جهدهما في تنظيمها وتقويتها ، ووضع قانون حكمها ، ووجد كل فرد من أفراد هذه الأسرة مجده وعظمته في أن يمد تلك الإمارة المتحدة بكل ما يملك من قوة — لكان من الممكن أن تعمر تلك المملكة ، وأن يكون لها دور آخر غير هذا الدور القصير الذي قامت به ، ولكن التنافس كان شديداً ، ولنصغ إلى هذه الأبيات التي كتبها سيف الدولة إلى أخيه :

رضيت لك العليا ، وإن كنت أهلها وقلت لهم : بيني وبين أخى فرق
ولم يك بي عنها نكول ، وإنما تجافيت عن حقى ، قم لك الحق
ولا بد لى من أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق
فبرغم ما يؤثر من أنه كان بين الأخوين محبة وود ، تحس بما كان بينهما
كذلك من تنافس خفى .

أما والد أبى فراس فأحد أبطال هذه الأسرة ، اتصل بالخليفة المقتدر اتصالاً وثيقاً ، حتى أصبح أثيراً لديه ، وكثيراً ما دافع عن الخليفة فى الثورات التى كانت تشب ضده ، وولاه الخليفة بعض الولايات ، وكان له وقائع فى القبائل العربية الثائرة ، وقد سجل بعض هذه الوقائع فى قوله ، وقد أثنى فى بنى عقيل بموضع يقال له « سرح » وراء نجد :

لببيتها ، نسأل عن موطنى	بأرض سرح ، والقنا شرع
وعن عقيل إذ صبحناهم	وقد تلاقى الحشد والدرع
وقد أتانا منهم فليق	حماء حام ، ماله مدفع
حتى إذا ما كشرت نابها	وعيف كأس الموت ، لا يكرع
وفلقت هام أسود الوغى	وقطع الأسواق والأذرع
شدت فيهم شد ذى صولة	قد جربته الحرب لا يخدع
لا تزجرنى عن طلاب العلا	فما ينال العز من يضرع
أنا « سعيد » وأبى « أحمد »	بالسيف ضرى ، وبه أنفع

وله كذلك غزو في بلاد الروم ، أو غل فيها وسبي ، وقد سجل له هذه المعارك ولده أبو فراس ، في قصيدته الرائية المطولة ، التي أنشأها مؤرخاً بها مفاخر أسرته ، وسوف نتحدث عن تلك القصيدة .

كما كان سعيد والد أبي فراس شاعراً مجيداً ، وقد ورث الابن عن أبيه حب الفروسية التي كان يراها وسيلته إلى نيل المجد ، وموهبة الشعر العاطفي الرقيق . ويحفظ التاريخ للأسرة الحمدانية أنها ردت غارات الروم ، وأغارت على بلادهم ، وفتحت الكثير منها ، كما قهرت القرامطة ، وتسلمت على الأكراد وأخضعتهم ، وأخضعت قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة وبادية الشام ، وأدخلتها في طاعتها ، وحاربت الإخشيديين في الشام .

وتلقى كثير من أبناء هذه الأسرة مدح كثير من الشعراء ، فما قيل في مدح جدهم : حمدان بن حمدون ، وكان يدعى « مكابد المحل » :

مازلت ^(١) في كيد المعيشة جاهداً حتى أنيت مكابد المحل
أعطى ، وقد بخل الزمان ، ولج في إعطائه ، إذ لج في البخل

ومما قاله فيهم هارون الكناني من قصيدة يمدح بها سعيد بن حمدان :

يبرزون ^(٢) الوجوه ، تحت ظلا ل الموت ، والموت منهم يستظل
كرماء ، إذا الظبا غشيتهم منعتهم أحاسيم أن يولوا
وقال الشاعر يمدح ناصر الدولة :

من ^(٣) كان شرفه فيما مضى لقب فناصر الدين ممن شرف اللقبسا
دعوك : « ناصرهم » لما نصرتهم فأعجز العجم ما حاولت والعربا
وفيهم يقول السرى الرفاء :

والحمد ^(٤) حلى بنى حمدان ، تعرفه والصبح أبلغ ، لا يلقى بإنكار

(١) و (٢) و (٣) ديوان أبي فراس ص ١٢٥ و ١٣٥ و ١٣٧ على التوالي .

(٤) أبو فراس للعامل ص ٧ .

قوم إذا نزل الزوار ساحتهم تفيثوا ظل جنات وأنهار
ومدح المتنبي أبا العشائر، وكان ثلث ديوانه تقريباً في سيف الدولة ومعاركه،
وفيه يقول الشريف الرضى من قصيدة يرثى بها أبا الهيجاء : حرب بن سعيد :
أخا أبي فراس :

فأين ^(١) كفاة القطر في كل أزمة	وأين اللاجئ منهم والمغاوث
إذا مادعا الداعون للبأس والندى	فلا الجود منزور، ولا الغوث رائث
إذا طرحوا عمتهم وضحت لم	مفارق، لم يعصب بها العار لاث
يرف على ناديم الحلم والحجا	إذا ما لنا لاغ من القوم رافث
مضوا لا الأيادي مخدجات نواقص	ولا سرر العلياء منهم رثاث
وما كنت أخشى الدهر إلا عليهم	فهان الرزايا بعدهم والحوادث

وكان هذه القصيدة رثاء لبني حمدان .

(١) أبو فراس الشعراني، ومخطوطات البروت، ج ٢، ص ٤٦٢ .

يَتِيم

من هذه الأسرة التي بنت ملكها برماحها ، ينحدر الشاعر الفارس أبو فراس ،
ففي يوم لا يعينه التاريخ ، من عام عشرين أو واحد وعشرين وثلاثمائة للهجرة ،
ولد في الموصل — على ما أرجح — للأمير أبي العلاء سعيد بن حمدان طفل ،
سماه : الحارث ، وكناه : أبا فراس ، وهي من كنى الأسد . ولم يكن هذا الطفل
وحيد والده ؛ فقد أنجب أبناء غيره ، منهم : الحسين ، وأبوالهيجاء ، وبنتين صارت
إحداهما زوجاً لأبي العشار ، والأخرى زوجاً لسيف الدولة . أما الحارث فكان
وحيد أمه ، كما يفهم ذلك من قول أبي فراس ، يعتب على سيف الدولة سوء رده
لوالدته ، وهو في الأسر :

جاءتك تمتاح رد واحداً ينتظر الناس كيف تغفلها
ولعلها لم تأت بغيره .

ويبدو من قول أبي فراس :

وأعمامى ربيعة ، وهى صيد وأخوالى « بلصفر^(١) » وهى غلب
وقوله :

إذا خفت من أخوالى الروم خطة تخوفت من أعمامى العرب أربعا
أن أمه كانت رومية ، كما يظهر أنها كانت عربية من قوله :

لم تنفرق بنا خثول فى العز ، أخوالنا تميم
فلعل تمياً كانوا أخوال أبيه ، أو أن إحدى جداته كانت رومية .

وبينما كان الطفل يناهز عامه الثالث ، أو كان قد جاوزه بقليل ، أودى
الطمع بأبيه ، قتلته ناصر الدولة بالموصل — كما ذكرنا — فلم يبق للطفل الصغير

(١) يريد بنى الأصفر وهم الروم .

سوى رعاية أمه وعطفها ، ولقد غمرته الأم بهما ، ووقفت حياتها كلها على خدمته وحبه ، برغم ما يبدو من أنها كانت لا تزال شابة فتية عندما أرملت ، وربط هذا النوع من الحياة بين الأم وولدها برابط متين من الحب العميق ، وقد أفرغت الوالدة كل ما لديها من عواطف على هذا الطفل ، والطفل يضمهر لها مع الحب عظيم الإعجاب والتقدير ، وكان يثنى على شدة تقواها وصلاحها ، حتى لقد قال فيها :
فيها التقى والدين محم وعان في نفس زكية

وقد نشأته تنشئة صالحة ، وعنيت بثقافته عناية خاصة ، فأحضرت له مربين ، لقنوه علوم الدين واللغة العربية ، وتاريخ العرب وأيامهم ، ولا سيما تلك الأيام التي كانت لقييلته : ربيعة ، ودرسوا له شيئا من الشعر ، ولا سيما شعر أهل الشام ، الذين كان البحترى نموذجهم ومثلهم ، كما تعلم الرماية والفروسية على يد مدرسين مهرة ، وذلك هو منهج دراسة الأمراء في ذلك الحين ، وقد أجاد أبو فراس ما درس ، حتى قال فيه أحد رجالات عصره :

من ذا يطاوله ، أم من يماجده أم من يساجله ، أم من يكاثره ؟!
أم من يفاقه ، أم من يشاعره أم من يجادله ، أم من يناظره ؟!
أم من يبارزه ، أم من يواقفه في كل معترك ، أم من يصابره ؟!
وقال فيه أبو أحمد الشيباني :

أمدره تغلب ، لسناء علما ومصقع نطقها عند التلاحى
لقد أوتيت علما واضحا بأدب وألفاظ فصاح
أما نبوغه في الفروسية — وقد كان مثله الأعلى أن يصبح فارسا ممتازا ، لامع الاسم ذائع الصيت — فقد بدا ، ولما يبلغ العشرين ، وها هو ذا ابن عمه أبو زهير (المتوفى سنة ٣٣٩) يرسل إليه مهثا بانتصاره في معركة دارت بينه ، وبين قوم من العرب ، فيقول له :

يا خير منتجب ، ينميه خير أب غيلقي فيك لم تكذب ولم تخب

إن كان وجهك لم تخطط عوارضه فأنت كهل الحجا والفضل والأدب
وقفت يابن سعيد وقفة شهرت لا زلت أدعوك فيها فارس العرب
وسنرى مظاهر هذه القروسية في مستقبل حياته .

وأما معرفته بتاريخ العرب وأيامهم ، فنجد آثارها في إشارته إلى ذلك التاريخ
في غضون قصائده ، كما قال في قصيدة كتب بها إلى أمه وهو في الأسر :

ويأمتا ، صبرا ، فكل ملة تجلّ على علائها وتزول
أمالك في « ذات النطاقين » أسوة بمكة ، والحرب العوان تجول
أراد ابنها أخذ الأمان ؛ فلم تجب وتعلم علما أنه لقتيل
تأسى ، كفالك الله ما تحذرينه فقد غال هذا الناس قبلك غول
وكوني ، كما كانت بأحد « صفية » ولم يشف منها بالبكاء غليل
وكما أشار إلى حدث من أحداث حرب البسوس في قوله :

وفي طلب الثناء مضى « بحير » وجاد بنفسه « كعب بن مام »
إلى غير ذلك . ولئن فيما لقن تاريخ أسرته ، وما كان لآبائه وأجداده من
مفاخر قديمة وحديثة ، وضمن ذلك قصيدة طويلة ، سوف نتحدث عنها .
ولقد نضج الفتى نضجاً مبكراً في الشعر ، ويقال : إن أول بيت قاله هو :
بكيت ، فلما لم أر الدمع ناقى رجعت إلى صبر أمر من الصبر
وهو بيت مملوء حياة وقوة ، لا يقلل منهما هذا الجنس المأخوذ من اللغة
الدارجة . وسوف نتحدث عن شعره وتدرجه في فصل قادم .

قضى الفتى طفولته وصدر شبابه في منبج ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من
غرب الفرات ، وعشرة فراسخ من الشمال الشرق لمدينة حلب . ويقول عنها
ياقوت : إنها مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، ويشرب
أهلها من قنى تسيح على وجه الأرض ، وفي دورهم آبار أكثر شربهم منها ؛
لأنها عذبة صحيحة ، وهي ذات طبيعة جميلة ، وجو معتدل .

وقد أحب الشاعر مدينته ، وقضى فيها أياما سعيدة ، وكان في رحلاته إلى الموصل حيناً ، وإلى الرقة أحياناً ، يحن إليها ، ويتذكر سعادته بها ، ويتمنى أن يعود إليها . قال في إحدى قصائده رحلته :

فأرقت حين شخصت عنها لذتي وتركت أحوال السرور ورأى
ونزلت من بلد الجزيرة منزلاً خلوا من الخلطاء والسندماء
الشام ، لا بلد الجزيرة لذتي و « بريد » لا ماء « الفرات » منأى
وأبيت مرتين الفؤاد « بمنبج » السوداء ، لا « بالركة » البيضاء
وصار حاكم منبج من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وأسرته الروم وهو يدافع
عنها . وكان يذهب إلى ابن عمه سيف الدولة بحلب ، ويطيل مقامه فيها ، وقد
يستخلفه سيف الدولة على إمارته . أما أم شاعرنا فكان معظم إقامتها بمنبج ،
على ما يظهر .

وبعد ، فإذا كان موقف أبي فراس من ذكرى أبيه ، وماصلته بناصر
الدولة قاتله ؟

أما أبو فراس فكان قليل الحديث عن والده ، ولم يطل في الحديث عنه إلا
وهو يسجل مفاخره ، في القصيدة الرائية الطويلة ، وفيما عداها لا يكاد يذكر أباه ،
إلا ليتحدث عن فضل سيف الدولة عليه ، وأنه رعاه بعد فقد أبيه ، فتسمعه يقول :
فكيف تنتصف الأعداء من رجل العز أوله ، والجحد آخره
فمن سعيد بن حمدان ولادته ومن علي بن عبد الله سائره
ولا ريب أن لصغر سن الشاعر يوم مات أبوه دخلاً في ذلك ، فهذا الحادث
لم تنطبع صورته في نفسه انطباعاً يثيره ، فلما شب كان قد اعتاد هذا اليتيم ، فلم
يشعر بأنه قد شئتاً ألقه من قبل .

على أن أبا فراس ما كان يعد الموت في سبيل المجد شيئاً يحزن له ، أو
يأسف عليه :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين ، أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغلها المهر
أما صلته بناصر الدولة ، فيبدو أنه في قرارة نفسه كان يحمل له المودة ،
ويشعر نحوه بالمرارة ، وها هو ذا في المواطن التي يستطيع أن يظهر فيها ألمه ،
لا يخفى بغضه له وحقدّه عليه ، فعندما لجأ ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة هارباً
من معز الدولة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، قال أبو فراس يعرض به ، ويذكر
ثأره عنده ، ويرى أن شيخوخته لم تجلب له فضيلة ، ولم توجب له التقدم على
أخيه الصغير : سيف الدولة ، فيقول :

شيخوخة سبقت لا فضل يتبعها وليس يفضل فينا الفاضل الهرم
ولم يفضل عقلاً في ولادته على عليّ أخيه السن والقدم
وكيف يفضل من أزرى به بخل وقعدة اليد والرجلين والصمم
لا تنكروا يا بني ما أقول ، فإن تنسى الترات ، ولا إن حال شيخكم
كادت مخازيه ترديه ، فأثقه منها ، بحسن دفاع عنه ، عمكم
وذكر مرة سيف الدولة سخاء أخيه ناصر الدولة ؛ فقال أبو فراس .

من كان أنفق في نصر الهدى نشباً فأنّت أنفقت فيه النفس والنشبا
يذكر أخوك شهاب الحرب معتمداً فيستضيء ، ويغشى جدك اللهب
ويظهر أن ناصر الدولة كان يحس من أبي فراس ذلك ، فما كان يهش
لرؤيته ، وما كان أبو فراس يسعى إلى لقائه . عتب عليه أخوه أبو الهيجاء في
تأخره عن لقاء الأمير ناصر الدولة ؛ فكتب إليه أبو فراس :

أبلغ أبا الهيجاء مألكة امرئ في سره الشكوى وفي إعلانه
مالي أطاوع باختيارك جاهدا ما النفس تحملني على عصيانه
من دون ذلك نفس حريرة أمسى مكان الذل غير مكانه
أباء ما تلم العدا ، عيابه دعاء ما حفظ الندى ، صوانه

ما صاحبي إلا الذي في وجهه عنوانه في بشره ولسانه
كم صاحب لم أغن عن إنصافه في عسرتي ، وغنيت عن إحسانه
وإذا كان أبو فراس قد تغنى في قصيدته الرائية بما أثر ناصر الدولة ووقائعه ،
مدافعا عن الخلافة حينئذ ومشخنا في الثائرين حينئذ آخر ، فإن المقام كان يستدعي
هذا التسجيل ، ليستكثر من مفاخر أسرته ، ومع ذلك فأين ما ذكره في هذه
القصيدة من مفاخر ناصر الدولة بالنسبة لأخيه سيف الدولة ، وإذا كان قد شاركه
في الحزن يوم توفي ابنه : أبو المرجى جابر ، فرائاه بقصيدة تنطق بالحزن والأسى ،
فذلك لأن جابرا هذا كان يعطف على أبي فراس ، ويعامله معاملة فيها حب
وعطف ، كما نشعر بذلك في هذا الرثاء المؤثر :

أبا المرجى ، غير حزني دارس أبدا عليك ، وغير قلبي سال
ولئن هلكت فما الوفاء بهالك ولئن بليت فما الوفاء ببال
لا زلت مغدوؤ الثرى ، مطروقه بسحابة ، مجرورة الأذيال
وحجبين عنك السيئات ، ولا يزل لك صاحب من صالح الأعمال
أما أبو فراس ، فيبدو لي ، أنه في أعماق قلبه حاقد على ناصر الدولة ، ولعل
ناصر الدولة وأخاه سيف الدولة ، رغبا أن ينهضا بعبء عمهما معيدا بعد قتله .
ولما كان أبو فراس من نصيب سيف الدولة ، فإن ناصر الدولة لم يستطع أن يححو
ببره من قلب أبي فراس أثر ما قدمت يداه .

وعاش بعض إخوة أبي فراس بالموصل عند ناصر الدولة ، ولم يرم منذ كان
صغيرا ، فلما ذهب إليهم بعد أن كبر ، كانت صورتهم لم يبق لها في ذهنه من أثر ؛
فعرّفهم بالتخيل ، وبذلك الجاذبية التي تجذب الأخ إلى أخيه ، وفي ذلك يقول :
يلوح بسياه الفتى من بنى أبي وتعرفه من غيره بالشمايل
مفتدى ، سردي ، يكثر الناس حوله طويل نجاد السيف ، سبط الأنامل
والظاهر أنه دعا إخوته للإقامة معه في منبج بعد أن صار حاكما لها ، وبعد أن

أقطعه سيف الدولة إقطاعات تدر عليه رزقا رغدا ، كما يمكن أن نفهم ذلك من قوله :

ألا يا زائر الموصل ، حي ذلك النادى
قبالموصل إخوانى وبالموصل أعضاى
وقل للقوم يأتونى من مثنى وأفراد
فعندى خصب زوار وعندى رعى وراد
كفانى سطوة الدهر ، جواد نسل أجواد

ويظهر أن الشاعر قد تزوج مبكرا ، وأنجب من بين ما أنجب فتاة ، أدركت دور الاحتجاب عندما داهم الموت والدها ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . وإن كنا نلاحظ أنه كان قليل الحديث عن أولاده وهو فى الأسر ، فلم يذكرهم إلا فى قصيدة واحدة ، ولم يتحدث مطلقا عن زوجه وهو أسير ، ولست أدري عن زوجه شيئا ، اللهم إلا أبياتا قالها فى ديوانه ، هى :

وأديبة ، اخترتها ، عريسة تعزى إلى المجد الكريم ، وتنتمى
محجوبة ، لم تبذل ، أمارة لم تأتمر ، مخدومة ، لم تخدم
لو لم يكن لى فيك إلا أنى بك قد غنيت عن ارتكاب الحرم
(ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى ، بمنزلة الحب المكرم)

وقدم لها ناشر الديوان بأنه قالها فى ابنته : زوج أبى العشائر ، ووضح خطأ هذا التقديم ؛ لأنها حديث عن أديبة اختارها ، وأغنته عن ارتكاب الحرم ، واقتبس بيت عنقرة ، يبين به عن منزلتها فى قلبه ؛ فهى حديث عن زوج اختارها ، لا ابنة زوجها . ويرجح هذا أن بعض الروايات تنص على أن ذلك آخر شعر قاله ، فإذا سلمنا أن ذلك من أواخر ما قاله من الشعر ، تحققنا أن ذلك لم يكن فى ابنة له تزوجها أبو العشائر ، لأن أبا العشائر توفى قبل أسراى فراس ، والأقرب إلى الصواب أن هذه الأبيات قالها فى ابنة أبى العشائر التى تزوجها أبو فراس ، وربما يكون قد تزوجها قبل موته بشهر ، كما يستفاد من موازنة الروايات . والواقع أن تلك مسألة غامضة فى حياة أبى فراس .

بيئة مثقفة

كان من حسن حظ أبي فراس أنه عاش في أرقى بيئة أدبية عرفها عصره ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي يومئذ ، فقد عاش في بلاط ابن عمه سيف الدولة ، ذلك الأمير الحداثي الذي عرف كيف يجمع حوله طائفة ممتازة من الشعراء ، واللغويين ، ورجال النحو ، والفلسفة ، وكان جوده وطمعه في حسن الأحدوة يجذبان إليه طوائف الشعراء والأدباء والعلماء ، واجتهد كل طامع في كرمه أن يجيد ويتقن ، ليفوز بعطايا الأمير ، الذي كان يعطي عطاء من يلتذ بالإعطاء . يقول عنه الثعالبي في يتيمة^(١) : « ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر » .

ويحفظ التاريخ أسماء كثير من الشعراء اللامعة شخصياتهم في تاريخ الأدب العربي ، ممن قصدوا سيف الدولة ، ونالوا حبه وتقديره ، ومنهم المتنبي ، والسري الرفاء ، وأبو العباس النامي ، وأبو الفرج البغداد ، والوأياء الدمشقي ، وغيرهم من الشعراء الذين خلدوا ذكره على وجه الزمان .

وكان في بلاطه أشهر اللغويين والنحويين والفلاسفة في عصره : أبو علي الفارسي ، وتلميذه ابن جني ، وابن خالويه ، والفارابي . وكثيراً ما كانت تدور المناقشات في مجلس سيف الدولة ؛ فكان ابن جني — مثلاً — وهو صديق المتنبي يناقش الشاعر فيما يرد في شعره مما يبدو خارجاً على قواعد النحو وأصول اللغة ، وتوثقت الصلة بينهما (وقد شرح ديوان المتنبي شرحاً استفاد منه كل من شرح الديوان بعده ؛ لاتصاله بالمتنبي ، ومعرفة بظروف شعره التي كثيراً ما تحدد المعنى ، وتمنع التأويلات)^(٢) .

(٢) ظهر الإسلام ج ١ ص ١٨٦ .

(١) ج ١ ص ١١ .

أما ابن خالويه فلم تكن صلته بالمتنبي صلة حب ، بل صلة حشد وعداء ، فكان كثير الاعتراض على شعره ، والتفنيد لآرائه ، وكان ابن خالويه منحازاً إلى أبي فراس ، الناقم على المتنبي ، كما سنبينه بعد . وهو الذى قام بجمع شعر الأمير الحمداني الشاب .

كان بلاط سيف الدولة الذى عاش فيه أبو فراس يموج بالعلم والأدب ، وكثيراً ما كانت تدور فيه المناقشات والمناظرات اللغوية والأدبية والشعرية ، وكثيراً ما كان سيف الدولة ينشد القريض ، ويستنشده ، وينقده ، روى الثعالبي قال : « واستنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التى أولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وكان معجباً بها ، كثير الاستعادة لها ، فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله فيها :

وقفت ، وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى ، وهونائم
تمر بك الأبطال كللى هزيمة ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقد على امرئ القيس بيتاه :
كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ^(١) الزق الروى ولم أقل لخليلى : كرى كرة بعد إجمال
وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطر هذين البيتين ، وكان ينبغى
لامرئ القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل لخليلى : كرى كرة بعد إجمال
ولم أسبأ الزق الروى ، للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

(١) سبأ الخمر شراها ليعقربها .

تمر بك الأبطال كلّي هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم
فقال : أيد الله مولانا ، إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا
كان أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف
أن الثوب لا يعرفه البراز معرفة الحائك ، لأن البراز يعرف جلته ، والحائك
يعرف جلته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن
امرؤ القيس لذة النساء ، بلذة الركوب للصيد ، وقرن السباحة فى شراء الخمر
للأضياف ، بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت
أتبعته بذكر الردى ، وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو
من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ،
وغيرك باسم ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها ؛ فأعجب
سيف الدولة بقوله ، ووصله .

وأنشده أحد الشعراء مرة قصيدة شكر ، يقول فيها :

لم يفد شكرك فى الخلائق مطلقاً إلا ومالك فى النوال حبيس
حتى إذا انتهى بقوله :

فغدا لنا من جودك المأكول ، والمشروب ، والمنكوح ، والملبوس .

قال له سيف الدولة : « أحسنت ، إلا فى لفظة المنكوح ، فليست مما يخاطب
بها الملوك . » وفى ذلك ما يدل على رفاة ذوقه .

وكان سيف الدولة يقول البيتين والأبيات ، فى الحين بعد الحين ، فمن ذلك قوله :

أقبله على جزع	كشرب الطائر الفزع
رأى ماء ، فأطعمه	وخاف عواقب الطمع
وصادف فرصة ، فدنا	ولم يلتذ بالجرع

وقوله :

تجنّى على الذنب ، والذنب ذنبه وعاتبنى ظمأ ، وفى شِقِّه العتب

وأعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني ، حين كان لي القلب
إذا برم المولى بخدمة عبده تجنى له ذنباً ، وإن لم يكن ذنب
ولم يكن قول الشعر ، ولا تذوقه مقصورين على سيف الدولة وحده ،
بل لقد امتازت الأسرة كلها بحب الشعر ، وحسن تذوقه ، وأجاد كثير من بنيتها
صناعة القريض ، وكان الأمير سعيد والد أبي فراس وأخوه نصر أبو السرايا
شاعرين ، وأوردنا فيما مضى شيئاً من شعر الأمير سعيد ، وقد عقد الثعالبى في
كتابه : يتيمة الدهر ، فصولاً ألم فيها ببعض ما كان لهذه الأسرة من صلة بالشعر ،
وما كان لهم من غرام به ، ونقد له ، وروى بعض ما جرى على ألسنة أبنائها منه ،
فأبو وائل يقول ، عندما أسر في إحدى المواقع :

يا خليل ، أسعداني ، فقد عيل اضطبارى على احتمال البلية .

وأبو زهير مهمل بن نصر يقول ، وهو مما كان يتغنى به :

وزعمت أنى ظالم ، فهجرتنى ورميت فى قلبى بسهم نافذ

فنعم ظلمتلك ، فاعتفرتلى زلتى هذا مقام المستجير العائد

وأنشد أبو بكر الخوارزمي لبعضهم :

أغمام ما يدريك ما أفعالنا والخليل تحت النقع كالأشباح

تطفو، وترسب فى الدماء ، كأنها صور الفوارس فى كئوس الراح

ويقول الثعالبى : « أخبرنى جماعة من أهل الأدب ، أن المتنبي لما عوتب فى

آخر أيامه ، على تراجع شعره ، قال : « قد تجاوزت فى قولى ، وأعفيت طبعى ،

واغتنتم الراحة ، منذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من يقول « يعنى أبا زهير » :

وقد علمت بما لا قتة منا قبائل « يعرب » و « بنى نزار »

لقيناهم بأرماع طـوال تبشرهم بأعمار قصار

ومنهم من يقول « يعنى أبا العشائر » :

أأخا الفوارس ، لورأيت مواقف والخليل من تحت الفوارس تنحط

لقرأت منها ما تخط يد الوغى والبيض تشكّل ، والأسنة تنقط
وكان بين أبي فراس وكثير من أفراد أسرته ، وبخاصة أبوزهير ، ترسل
بالقريض . غير أنه إذا كان كثير من أبناء هذه الأسرة يشرك أبا فراس في
صفات الشجاعة والكرم والنبيل ، فإن أبا فراس — ولا ريب — يبدّم جميعاً
في صناعة القريض ، فلم يكن بينهم من يساويه أو يدانيه .

نفسيته

ورث أبو فراس فيما ورث عن آبائه الطموح إلى حياة سامية ممتازة ، فنذ صغره كانت كبار الأمانى تجول في فؤاده ، وكان الجهد الرفيع هدفه الذى يرنو إليه ، فهذا العيش الخامل الذى يقنع به كثير من الناس لا يرضيه ، وهذا الرزق القريب المنال ليس مما يبتغيه .

وإن ذلك الطموح هو الذى دفعه إلى خوض غمار المعارك منذ الحداثة، حتى يلمع اسمه ، ويصبح أهلاً لنيل ما يصبو إليه ، قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة ، وفتحنا حصن العيون في سنة ٢٣٩ ، وسنى إذ ذاك تسع عشرة سنة ^(١) » . وكانت هذه الأمانى تبعث فيه الثورة على نفسه ، كلما وجد منها تقاعسا أو بظءا في العمل لنيل الأمل ، فيؤنبها بأن المهمة العالية لا تغنى ، ما دامت غير مصحوبة بعمل يحقق آمالها ، وحركة تدنى ما بعد من مثلها :

أرى نفسى تطالبنى بأسر قليل دون غايته اقتصارى
وما يغنيك من هم طوال إذا قرنت بأحوال قصار
وقيل لى: انتظر فرجا، ومن لى بأن الموت ينتظر انتظارى

والبيت الأخير يدل على الלהفة الشديدة ، لسرعة تحقيق الهدف .

وأغلب الظن أنه كان يخفى عن الناس الغاية التى يرمى إليها ، ويدبر لها في صمت . وفي البيئة السياسية التى يعيش فيها ، واتصاله الوثيق بسيف الدولة ، ما يحمله على هذا الإخفاء ، حتى لا تظن به الظنون :

بصان مهري ، لأمر لا أبوح به والدرع، والرمح، والصمصامة الخدم ^(٢)

(١) شرح ابن خالوية للقصيدة الرائية بديوان أبي فراس ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) القاطع من السيوف .

ولسكن مطمحه يبدو واضحاً جلياً ؛ إذا نحن تتبعنا تاريخ حياته ، ودرسنا
بيئته ، وفهمنا شعره ؛ فهو شاب قد تربى منذ طفولته في بيئة محاربة ، وانحدر
من أسرة بنت ملكها على أطراف رماحها ، فلا عجب أن كان الجد الحربى هو
ما ينشده في حياته ، وهو مثله الأعلى منذ الصغر . وكان يرمى من وراء هذا الجد
الحربى أن يؤسس لنفسه ملكاً ، فإن الوسائل التى يتغنى بأعدادها لهذا الأمل
الذى يخفيه ويضمه — وسائل لنيل الملك فى ذلك العصر ، وإلا فما الذى يدخره
الدرع والرمح والسيف :

نفى الهم عنى همّة علوية وقلب على ما شئت منه مؤازر
وأسمر مما ينبت الخط ذابل وأبيض مما يطبع الهند باتر
ودعا نفسه ملكاً فى بعض شعره ، إذ قال :

لئن ألفيتنى ملكاً مطاعاً فإنك واجدى عبد الصديق
وقد كان يرى نفسه أهلاً لبوع ما يصبو إليه ، ما دام مزوداً بأسلحة الكفاح
الناجحة ، ولعله تلفت حواليه ، باحثاً أين يبنى ملكه ، فافتنع بأنه لا يستطيع
أن يؤسس فى أرض يظلمها سلطان ابنى عمه : ناصر الدولة وسيف الدولة ، فأخذ
يلوم نفسه من ناحية على البقاء فى حلب ، التى لن يستطيع أن يحقق فيها أحلامه ،
ويقنع نفسه من ناحية أخرى بأن وطنه إنما هو المكان الذى يحقق فيه آماله ،
يتخذ منه داراً ، ومن سكانه أهلاً ، وأن عليه أن يرحل ليحقق مظاممه .

والمرء ليس بغانم فى أرضه كالصقر ، ليس بصائد فى وكره
ولعله أراد أن يقطع لنفسه هو الآخر جزءاً من جسم الدولة العباسية ، فإنه
ما كان يرى خلفاء العراق جديرين بالحكم ، كما نجده فى شعره .

غير أن أنا فرائس لم يحقق أمله فى حياة سيف الدولة ، فرأيناه ينحى باللائمة
على الدهر الذى يدفعه عن آماله ، ويبرىء نفسه من التقصير ، ويراها أهلاً لكل
فضل ، وسمو ، فيقول :

تطالبني بيض الصوارم والقمنا بما وعدت جدىً فى الخايل
ولا ذنب لى ؛ إن الفؤاد لصارم وإن الحسام المشرفى لفاصل
وإن الحصان الوثاقى لضامر وإن الأصم السمهرى لعامل
ولكن دهرأ دافعتى صروفه كما دافع الدين الغريم الماثل
وأخلاف أيام إذا ما انتجعتهما حلبت بكيات^(١)، وهن حوافل
ولو نيلت الدنيا بفضل منحتهما فضائل تحويها ، وتبقى فضائل
ولكنها الأيام ، تجرى كما جرت فيسفل أعلاها ، ويملو الأسافل

ولقد غذى فيه صفة الطموح اعتداده بنفسه ، وإيمانه بمواهبه ، هذا الإيمان
الذى جعله يشعر بجدارته بأعلى المناصب وأسمائها ، فهو يرى أنه قد ورث عن
آبائه البسالة فى الحروب والإقدام :

أنا ابن الضاربين الهام قدماً إذا كره الحمام الضرابا
ويرى أن حدانة سنه لم تحمل بينه وبين أن يكون له رأى سديد ونظر
نائب ، وهو لذلك يجمع بين حماسة الشباب ، ونضج الكهول :
إن لم تكن طالت سنى فإن لى رأى الكهول ، وغيرة الشبان
ويرى نفسه كفء الكفاية العظام ، وتحمل الأثقال ، بل إن المنع إذا
طلبه كان يسير المنال ، يقول لابن عمه أبى العشائر ، وقد وقع فى الأسر :
ألاً دعوت أخاك ، وهو مصاقب يكفى العظيم ، ويحمل الأثقالا
ألاً دعوت أبا فراس إنه ممن إذا طلب الممنوع نالا
ومن اعتداده بنفسه أنه كان يجاهر عدوه ، وينذره بالحرب ، ولا يأخذه
غيلة ، ولا يدبر له مكيدة :

(١) أخلاص جمع خلف وهو الضرع ، وانتجعها طلب ما فيها من اللبن ، وهكبات الناقة
أو الشاة قل لبنها .

إذا شئت جاهرت العدو، ولم أبت أقلب فكرى فى وجوه المكابد
وكان يعلن عن نفسه فى المعركة، ولا يرى الحذر والتستر. وفى معركة
دارت بينه وبين الروم سعى نفسه، فلما أسر بعض صحبه، طلب منه قائد الروم أن
يكتب إلى أبى فراس، ويقول: مثلك لا يتسمى فى مثل ذلك اليوم، ويعرف
الناس نفسه؛ فقال أبو فراس فى ذلك هذين البيتين:

يعيب علىّ إذ سميت نفسى وقد أخذ القنا منهم ومنا
فقل للعلاج: لو لم أسم نفسي لسماني السنان لهم، وكفى
ويبدولى أن أبا فراس قد غالى فى اعتداده بنفسه، وشعره بها، حتى
ليخيل إليه أن الدنيا كلها تحسده، وكأن الأيام لم تر من قبل فاضلا مثله:
ولم أر مثلى أكثر الناس حاسدا كأن قلوب الناس لى قلب واحد
ألم يرهذا الدهر قبلى فاضلا ولم يظفر الحساد قبلى بماجد
والمواطن التى كان يعتد فيها بنفسه هى مواطن الحرب، ومواطن الرأى،
ومواطن القول، وهى مجلّة كلها فى هذا البيت:

منعت حى قومي، وسدت عشيرتي وقلدت أهلى غرهذى القلائد
إلى جانب الطموح والاعتداد بالنفس، نرى فى أبى فراس عزة وإباء، يدفعانه
إلى أن يمارس أسباب الجحد التى تعزّه بين بنى قومه، ويأبى أن ينزل عن كرامته
فى سبيل عرض فإن من أعراض هذه الحياة، فهو لا يعد السيد جديرا بشرف
السيادة إن استذلته مطامعه، قال:

ولا أنا من كل المطاعم طاعم ولا أنا من كل المشارب شارب
ولا أنا راض إن كثرت مكاسبى إذا لم تكن بأمر تلك المكاسب
ولا السيد القمقام عندى بسيد إذا استنزله عن علاه الرغائب
وقد عرضت على سيف الدولة خيوله، وبنواخيه حضور، فكل اختار منها،
وطلب حاجته، وأمسك أبو فراس؛ فعتب عليه سيف الدولة، ووجد فى نفسه

لهذا التصرف ، فأرسل إليه أبو فراس قصيدة منها :

إِنَّ الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب ، حافى
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شيء كافى
ويعاف لى طبع الحريص أبوتى ومروءتى ، وقناعتى ، وعفافى
ما كثرة الخيل الجياد بزائدى شرقا ، ولا عدد السوام الضافى
وقد يقال إن تواضعه لسيف الدولة ، حتى لیسَمَى نفسه غلاما له ، ويقول :
فلا تعدلنّ ، فذاك ابن عمك لا بل غلامك ، عما يجب
يقلل من هذا الإباء ، أو يدفعه ، ولكننا سنبين فى فصل تال ما الذى دفع
أبا فراس إلى هذا التصرف .

وكان من أهم عوامل اعتداده بنفسه ، ما انصف به من الشجاعة والإقدام .
وإن مؤرخيه ليشهدون له بهما ، ويعملونهما فى رأس ما انصف به من مزايا .
وحوادث حياته تدل على أن معاصريه كانوا يقدرون تلك الشجاعة عظيم التقدير ،
وسيف الدولة الخبير فى معرفة قيم الرجال وغنائهم فى الحروب ، ولآه فى كثير
من الوقائع قيادة جيوشه ، وصحبه معه فى كثير من غزواته وكانت تلك الصفة
— شأنه فى ذلك شأن العرب — ينبوع فخار دائم له ، فلا تكاد تقرأ قصيدة
يفتخر فيها ، إلا رأيت صفة الشجاعة بارزة فى هذا الفخار ، يعدها عنصراً أساسيا
من فضائله ، فتسمعه يقول :

وإني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشرر
وإني لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدى ، إلى أن تروى البيض ، والقنا وأسغب ، حتى يشبع الذئب ، والنسر
ويا رب دار ، لم تخفى ، منيعة طلعت عليها بالردى أنا ، والفجر
فهو فارس مقدم ، ولا يقلل من أمر فروسيته أنه وقع أسيراً فى يد عدوه ،

بل إن رضاه بالأسر يدل على تلك الصفة ويؤكد لها ، فقد فضل الأسر على أن يلوذ بأذيال الفرار .

وقال أصيحابي : الفرار أو الردى قلت : هما أمران ، أحلاهما مر
ولكنني أمضى لما لا يعينني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوائه عمرو
ومما نعى صفة الإقدام فيه ، إيمانه بالقضاء والقدر ، فهو يضع الخطة الحربية ،
ويؤمن بأن في يد الله نجاحها أو إخفاقها ، وذلك هو الاستسلام الذي يملأ قلب
الجندي في ميدان المعركة ، وما دام هذا الإيمان يملأ قلبه ، لا خير في التراجع ،
ولا فائدة فيه .

شاعرنا يؤمن بالقضاء والقدر ، فإذا اتخذ الله حافظاً ستره وجنبه الزلل .
وكنت إذا جعلت إلا لي ستراً من النوب
رمتني كل حادثة وطارقة فلم تصب
يؤمن بأن الله هو موثي النصر ، فإذا اعتددت بغيره أتتك الهزيمة ، من حيث
ترجو الظفر :

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد
وليست آلات القتال ، وإن أحسنت عدتها ، ودققت في اختيارها ، مما
يحفظك إذا الله لم يرد :

إذا الله لم يحرزك مما تخافه فلا الدرع مناع ، ولا السيف قاضب
ولا سابق مما تجنبت سابق ولا صاحب مما تخيرت صاحب
فالمرء — عنده — مسير بالقضاء والقدر ، وإرادته ليست شيئاً أمام إرادة الله :
وما لم يرد الله في الأمر كله فليس للخلق إليه سبيل
فلا غالب لقضاء الله ، ولا هارب مما قدره ، ولقد تعدد للأمر علمته ، وتحصن
ما شئت أن تتحصن :

ولكن إذا حم القضاء على امرئ . فليس له برقيقه ولا بحر
ولقد كان إيمانه بالقضاء والقدر من بين الأسباب التي كانت تجلب إلى نفسه
— في بعض الأحيان — الراحة وهو أسير في أيدي الروم .

أبو فراس فارس شاعر ، فيه ما في الفارس من شدة وقسوة ، وما في الشاعر
من لين ورحمة ، فهو في الموقعة محارب ، يكرس كل جهده ؛ لإنزال الهزيمة بالعدو ،
لا يقصر في الضرب والطعان ، ويرى بالدماء السيف والقناة ، ويشبع بأجسام
العدو الذئاب والنسور ، ولا يرضيه إلا أن يلقي العدو أمامه سلاحه ، أو أن يولى
مدبراً هزيماً :

فولوا ، للقنا والبيض فيهم وفي جيرانهم نهل وعل
محارب ، يرى مقابلة الشر بالشر ، ودرء الفساد بالفساد ، وهو في ذلك غير
آثم ولا متجنّ ، ما دام عقبى القسوة رشداً وصلاحاً ، وكأنه بذلك يؤمن بأن
الحرب شر لا بد منه ؛ لانتظام أمور المجتمع :

ألا أبلغ سراة بني كلاب إذا نديت نواديهم صباحاً
جزيت سفيهم سوءاً بسوء فلا حرجاً أتيت ولا جناحاً
ولست أرى فساداً في فساد يحر على فريقه صلاحاً
وهو شاعر ، يحمل قلباً رحيماً عطوفاً ، حتى على من يحاربه ، فلا يلبث بعد
انتصاره عليه أن تتحرك فيه عوامل الشفقة ، فيثوب إلى حلمه ، ويغلب عليه العفو :
له بطش قاس ، تحته قلب راحم ومنع بخيل ، تحته ذيل مفضل

* * *

فلما أطعت الجهل والغیظ ساعة دعوت بحلمى : أيها الحلم أقبل
فهو :

يستعمل الشدة في أوائلها ويغفر الزلة في إبانها
بل إنه ليمتدّى العفو إلى البذل والعطاء . ووقائعه مع ثوار العرب الذين

عادوا فأبوا ، دليل صدق على تأصل تلك الطبيعة فيه ، وها هو ذا يحدثنا عن
بنى كلاب ، وقد عادوا إلى الطاعة ، وتركوا العصيان :

وعادوا سامعين لنا ، فعدنا إلى المهود : من شرف الفعال
ونحن متى رضىنا بعد سخط أسونا ما جرحنا بالنوال
وفيه من صفات الفارس الشاعر أنه لا يقبل الضيم ، ولا يرضى أن يضم
من هو دونه ، يجد الضعيف في عدله المأوى والحمل ، أما الطاغية المتجبر فلا يجد
لديه العطف واللين :

وأبذل عدلى الأضعفين وللشامخ الأنف لا أبذله
ومن هؤلاء الضعاف المرأة ، فقد كان يصفى إلى استغاثتها ، ويسمع نداءها ،
ويأبى طلبها ، إذا حارب قبيلها ، فما هو إلا أن يسمع صراخ المرأة في المعركة ، حتى
يفغر لقومها ، ويعيد إليهم ما أخذه منهم ، وإن لأمه في ذلك جنده وعتبوا عليه
يتيمات نحمين ، ليس يرينى بعيد التجافى ، أو قليل التفضل
شفيع النزاريات غير مخيب وداعى النزاريات غير مخذل
رددت برغم الجيش ما حاز كله وكلفت مالى غرم كل مضلل
فأصبحت فى الأعداء أى ممدح وإن كنت فى الأصحاب أى معذل
وعدت كريم البطش والعفو فيهما أحدث عن يوم أغر محجل
ولا تقف صلته بالمرأة ، عند جد النزول على طلبها فى الحروب ، بل هو يقدرها
ويجمل أمرها ، ويعتد بمدحها ، ويسعى جاهداً لنيل هذا المدح ؛ فها هو ذا يحدث
فى طلب المجد ، حتى تستطيع بنات عمه أن يفتخرن به ، ويتحدثن عنه ، وحتى
لا يتركن خجلات ، يبحثن له عن مكرمة فلا يجدن ، فيلقن له المزايا ، تسمع
ذلك حين يقول :

أريتك ما تقول بنات عمى إذا وصف النساء رجالهنه
أما والله لا يمسىن حسرى يلقن الكلام ، ويعتذرنه

ولكن سوف أوجدن وصفاً وأبسط في الندى بكلا مهنة
متى ما يذن من أجل كتابي يكن بين الأعنة والأسنة
وهو يستشهد بهن ، ويحيلك أن تسألن عن كرمه ونبله ، ليخبرنك بما
رأين وبما سمعن ، ونراه يعتز بعجابهن ، ويفتخر به ، قائلاً :

ورحت أجرّ رمحي عن مقام تحدث عنه ربّات الحجال
فقائلة تقول : أبا فراس لقد حاميت عن حرم المعالي
وقائلة تقول : جزيت خيراً أعيد علاك من عين الكمال

وسوف ندرس في فصل قادم إلى أى مدى عرف قلبه الحب ؟
هذا ، وإذا كان أبو فراس تغاب عليه الرقة في معاملة عدوه ، حين ينهزم ،
فإنه كان رقيقاً في معاملته لصاحبه ، يرفق بهم إذا ساروا معه للغزو ، أو محبوبه
في سفر ، ويبذل إخلاصه قوياً عميقاً ، لمن يبذل له الإخلاص القوي العميق ،
وسوف نتحدث عن ذلك في إخوانياته

ومن الصفات التي ذكرها مؤرخوه بين سماته البارزة — كرمه ، ويقول
عنه الثعالبي في ذلك : « كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً
ونبلاً » (ص ٢٧ ج ١) ، والكرم من صفات العرب المتوارثة بينهم ، وهو
صفة من صفات هذه الأسرة ، التي لا تستطيع أن تبني مجدداً بدونها ، ولا أن
تؤسس زعامتها من غيرها . وله في التمدح بالكرم شعر كثير منه تلك المقطوعة
التي أرسلها إلى أبي محمد جعفر بن ورقاء ، وهي مشهورة ، ومنها :

إنا إذا اشتد الزمان ، وناب خطب ، وادلم

ألفيت حول ييوتنا بمدد الشجاعة والكرم

للقا العدا بيض السيوف ، وللندى حمر النعم

هذا وهذا دأبنا يودى دم ، ويراق دم

فأجابه أبو محمد بقصيدة ، منها :

أنتم كما قد قلت ، بل أعلى وأشرف يا بن عم
وهو يتمدح على طريقة العرب البادين ، بسعة الجفان ، وحسن لقاء الأضياف ،
وإيقاد النار للسارين ، يهتدون بها إلى بيته . ولكننا نرى أنه قد مرت به أوقات
فقر ، اشتهى فيها الغنى ، وصح له أن يقول مخاطباً من يحب :
وإنك في عيني لأبهى من الغنى
وأن يقول :

ولا راح يطعيني بأثوابه الغنى ولا بات يثني عن الكرم الفقر
وأغلب الظن أن هذه فترات ، كانت تمر به . أما حياته في مجملها فكانت حياة
شاب ثرى ، فقد كان حاكماً لمنبج ، من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وكثيراً ما غمره
هذا بمعطياته وإقطاعاته .

ولقد كان عند أبي فراس ميل إلى أن يستمتع بما في الطبيعة من جمال ، وأن
يعطى نفسه حظاً من اللهو ، كلما فرغ من الحرب والغزوات ، وهو لا يجد عاراً
على الفتيان أن يطلبوا اللهو ، وأن يسعوا إليه :

وما في طلب اللهو على الفتيان من عار

فليست الآمال الكبار التي تجول في فؤاده ، ولا الحرب التي استغرقت
واستغرق الإعداد لها كثيراً من وقته ، مما يثنيه عن هذا النصيب من اللهو . بل
إن الحرب بطبيعتها تبعث في نفس الجند رغبة المتعة بالحياة ، كلما فرغوا منها ، فإن
حياتهم دائماً في خطر ، فهم ينتهزون الفرصة للاستمتاع كلما عنت لهم ؛ فسماع
الغناء مما يطرب له ، وشرب الخمر من ساقية جميلة تديرها ، في روضة تفتحت
أزهارها ، وتغنت أطياريها ، أو في مجلس رق هواؤه ، وضفا ماؤه ، ونسقت أزهاره ،
يصببه ويحن إليه .

وردت إحدى محسنات القيان إلى حلب ، فاشتاق أبو فراس إلى سماعها ،

وكتب إلى سيف الدولة يرجوه أن يأذن في حضورها مجلسه ، ليستمع إلى غنائها ،
وقال له :

محللك الجوزاء ، بل أرفع وضدرك الدهناء ، بل أوسع
وقلبك الرحب الذي لم يزل للمجد والهزل به موضع
رقة بنقر العود سمعا غدا قرع العوالي جل ما يسمع
فأنظره سيف الدولة .

وز بما قضى بعض الليالى منغمساً فى اللهو ، كأشد ما يكون الانغماس ، ولعلك
تشم ريح أبى نواس فى قول شاعرنا :

تواعدنا لآذار بمسمى غير مختار
وقمنا نسحب الزيط ، إلى حانة خمار
فلم ندر ، وقد فاحت لنا من جانب الدار
بخمار من القوم نزلنا أم ببطار
وقلنا : أوقد النار ، لطرّاق وزوّار
وما فى طلب اللهو على الفتیان من عار

ولكننى ألمح أن مثل تلك الليالى قليل فى حياة أبى فراس ، ولم تكن
غرضه الأسمى فى الحياة ، بل هو يرى أنه هو وأسرته ما خلقوا للهو ، بل
للمجد والحرب :

لئن خلق الأنام لحسوكأس ومزمار ، وطنبور ، وعود
فلم يخلق بنو حمدان إلا للمجد ، أو لبأس ، أو لجود
وكان من أكبر لذائد أبى فراس خروجه مع صحبه إلى الصيد ، يعدون
له عدته ، ويأخذون له أهبتة ، وله فى ذلك أرجوزة طويلة ، سوف أعرض لها
فى فصل آت ، وقد تحدث فى مطلعها عن قلة ما ظفر به من أيام السرور ، إذ قال :

ما أجور الدهر على بنيه ! وأغدر الدهر بمن يهفيه !

لو شئت مما قد قلان جداً عدت أيام السرور عدداً
واقعد نقص على أبي فراس حظه من اللهو نزول الشيب مبكراً في رأسه ،
فقد ألم به ولما يبلغ العشرين ، فلم يكن قد استمتع من الصبا ، حتى جاءه داعي
الوقار ، وما أقبح الشيب ينزل في إبان الشباب . وهاهو ذا شاعرنا يستقبله شر
استقبال ، ويحتمله صابراً ، كما يحتمل شديد الأرزاء ، وقد احتار في أمر هذا
الجار الجديد ، أيقصه ويعفى آثاره ، أم يبقيه على كره ومضض ، فقرر رأيه على
احتماله . ونحن نرى الألم يفيض على لسان أبي فراس بالشكوى من الشيب ،
فنسمعه يقول :

عذيري من طوابع في عذارى ومن رد الشباب المستعار
وثوب كنت ألبسه أنيق أجسر ذيله بين الجوارى
وما زادت على العشرين سني فما عذر المشيب إلى عذارى
وما استمتعت من داعي التصابي إلى أن جاءني داعي الوقار
أيا شبي ظلمت ، ويا شبابي لقد جاورت منك بشر جار
هذا ، ولكي نكمل سماته النفسية ، نرى أن نبين ما لحقه من الجزع ، والنظرة
السوداء إلى الحياة ، عندما وقع في أيدي الروم أسيراً ، وسوف نتحدث عن
شاعرنا في الأسر.

ومن سمات أبي فراس إصرافه في إظهار عواطفه ، فرحاً أو حزناً ، فهو
إذا سمع عن صديق له مرض ، لا يكتفي إلا بأن تبلى العبرات خديه :
قيل لي : إنك اعتلت ، فأبد بيت جديد الخدين بالعبرات
وإذا مضى سيف الدولة إلى الغزو ، ودّع الهدوء نفسه ، والاستقرار قلبه ،
وترك دموعه تنهمر ، لأنه لم يصحبه ، فيقول :

دع العبرات تنهمر انهماكرا ونار الوجد تستعر استعارا
أطفأ حسرتي ، وتقر عيني ولم أوقد مع الغازين نارا ؟ !

إذا سار الأمير فلا هدوا لنفسى ، أويثوب ، ولا قرارا
أكابد بعده هما وغما ونوما لا ألدّ به غرارا
ولا يكتفى في الحديث عن شوقه إلا بتصويره نيرانا بين ضلوعه . أما نظراته
إلى الحياة ، وهو حر طليق ، فنظرة من يراها خليطا من الخير والشر ، والنعم
والبؤس ، والحكمة عنده أن يستقبل المرء الحياة برزانة من لا يرى ثباتا لسرور
ولا حزن ، ولا لنعم ولا شقاء ، وخير معبر عن هذه النظرة قوله :
الدهر يومان : ذا ثبت ، وذا زلل والعيش طعمان : ذا صاب ، وذا غسل
كذا الزمان ، فما في نعمة بطر للعارفين ، ولا في نقمة فشل
سعادة المرء في السراء إن رجحت والعدل أن يتساوى لهم والجلذل
وما الموم ، وإن حاذرت ثابتة ولا السرور ، وإن أملت ، يتصل
فما الأسى لموم ، لا بقاء لها وما السرور بنعمى ، سوف تنتقل ؟

صلته بأسرته

كان أبو فراس شديد الزهو بأسرته . وما بنته من مجد في الجاهلية والإسلام ، وقد أنشأ قصيدة طويلة تبلغ مائتين وخمسة وعشرين بيتا ، كلها تسجيل لما أثر آباءه وأجداده ، وفيها يعلن أن لأسرته في حاضرهما ما يضارع مجدها القديم إن لم يزد عليه ، ولولا هذا ، كان الفخر بالماضى تعلقة لا قيمة لها :

أشغلكم وصف القديم ، ودونه مفاخر ، فيها شاغل ومآثر
لنا أول في المسكرات ، وآخر وباطن مجد تغلبي ، وظاهر
أبا أحمد ، مهلا ، إذا الفرع لم يطب فلا طبن يوم الافتخار العناصر
وعلى ذلك مضى الشاعر يفخر بأجداده السابقين ، وأبناء أسرته المعاصرين .
وسوف ندرس هذه القصيدة عند الحديث عن فخره .

واتصل أبو فراس بعظماء أسرته ، وقد رأينا فيما مضى لون صلته بناصر الدولة أمير الموصل ، وسندرس فيما يلي صلته بسيف الدولة أمير حلب .
ومن بين أبناء أسرته كانت صلته وثيقة بأبي العشائر أمير أنطاكية ، ويظهر أن المودة كانت بينهما قوية الرباط ؛ فهذا الشعر الذي أنشأه أبو فراس ، حين أسر الروم ابن عمه أبا العشائر ، ينطق بهذا الود المتين ، فقد عبر عن حزنه بقصائد ، تفيض حبا وحنانا ، يقول في إحداها مخاطبا ابن عمه :

لذيذ الكرى حتى أراك محرم ونار الأسى بين الحشا تتضرم
وأترك أن أبكى عليك ؛ تطيرا وقلبي يبكى ، والجوايح تلطم
وأظهر للأعداء فيك جلادة وأكتم ما ألقاه ، والله يعلم
وكذلك كانت صلته قوية بابن عمه أبي زهير المهلهل ، وكان كل منهما يضرر لصاحبه الحب والإعجاب ، وفي تلك القصيدة الطويلة ، التي أنشأها لتسجيل مفاخر

قومه ، يتحدث عن المهلهل حديث الحب المعجب ، فيقول :
ومنا الأغمر ابن الأغمر « مهلهل » خليلي ، إن ذم الخليل المعاصر
فإن أدع في اللاؤاء ، فهو محارب وإن أسع لاعلياء ، فهو مظاهر
وديون أبي فراس يضم عدداً من القصائد التي تبودلت بين ابني العم ، وكلها
تفيض بالحب والوفاء .

وكان بين أبي فراس وأخيه أبي الهيجاء من بين إخوته حب عميق وود ،
وقد ألم الجزع بنفس أبي الهيجاء حين علم نبأ أسراخيه ، فسكتب إليه الأسير
يشجعه ، ويقول :

بنفسى ، وإن لم أرض نفسى ، لراكب يسائل عني ، كلما لاح راکب
قريح مجارى الدمع ، مستلب الكرى يقلقه هم من الشوق ناصب
أخى ، لا يذقنى الله فقداً مثله وأين له مثل ؟ وأين المقارب ؟
تجاوزت القربى المودة بيننا فأصبح أدنى ما يعد المناسب
ألا ليتنى حملت همى وهمه وأن أخى ناء عن الهم عازب
ولم يكن هذا الأخ شقيقاً له ، كما رجحنا ، ولا كان يعيش معه في بلدة
واحدة ، بل كان يعيش في الموصل ، كما نفهم ذلك من قوله في القصيدة السالفة :
سقى الله أرض الموصل المزن ؛ إنها لمن حلها فرض له الحب واجب
وكما نفهم ذلك من رسالة كتبها إليه ، وهو أسير بالقسطنطينية :

وقد كنت أشكو البعد منك ، وبيننا بلاد ، إذا ما شئت قربها الوحد
فكيف ، وفيما بيننا ملك قيصر ولا أمل يحى النفوس ، ولا وعد
وإذا كانت صلة أبي فراس قوية بالكثير من أفراد أسرته ، وكانت صلته
بهم يظللها الحب والمودة ، فقد رأيناه يشكو في بعض شعره ، ما يقاسيه من بعض
أقاربه ، وما يغالونه به : من الإساءة والمكروه :

أرأى وقومى فرقنا مذاهب وإن جمعنا في الأصول المناسب

قاصصهم أقصاهم عن مساواتي وأقربهم مما كرهت الأقارب
حتى لقد بلغ الأمر ببعض أهله أنه كان يكره خلاصه من الأسر الذي وقع
فيه ، كما سنرى ، وربما كان لهذا البعض أثره في تأخير فدائه ، وإرجاء سيف
الدولة أمر خلاصه .

ولقد ذكرنا فيما أسلفنا أن خلق الطموح في هذه الأسرة ، كان من نتائج
السيئة حدوث الفرقة ، بين بعض أبناء الأسرة وبعض ، وقلنا إن ذلك كان من
الأسباب التي حطمت قواهم ، وضعفت ملكهم . وكان موقف أبي فراس من
هذه الفرقة موقف المتألم الحزين ، وها هو ذا — وقد رأى بادرة تبشر باجتماع
شملهم ، يعلن غبطته وسروره ، ويدعو عشيرته إلى الوحدة واجتماع الكلمة ، فقد
حدث أن أبا تغلب بن ناصر الدولة حاصر أخاه حمدان بالرقه ، فهض أمراء
الأسرة إليها ، يحولون بين حرب الأخ لأخيه ، ففرح أبو فراس بذلك ، وقال :

الجد بالرقه مجموع	والفضل مرئى ومسموع
إن بها كل عميم الندى	يداه للجود ينابيع
لكن أتانى خبر رائع	يضيق عنه السمع والروع
أن بنى عى — وحاشاهم	شعبهم بالخلف مصدوع
مالعصا قوى قد شقها	تفارط منهم وتضييع
بنى أبى ، فرق ما بينكم	واش ، على الشحناء مطبوع
عودوا إلى أحسن ما كنتم	فأنتم الفرس المربيع
أنبذل الود لأعدائنا	وهو عن الإخوة ممنوع
لا يثبت العز على فرقة	غيرك بالباطل مخدوع

ولكن خلق الطموح في نفس أبي فراس قد غلب فيه على محبته لاجتماع الشمل ؛
فخرج هو يوماً ما على ابن سيف الدولة ، وأراد أن يأخذ لنفسه جزءاً من ملكه ،
وكان الأجدر به أن يكون عضد هذا الابن ، يقويه ، ويشد أزره .

صلته بسيف الدولة

كان الأمير سيف الدولة أكبر من اتصل به شاعرنا ، من بين أفراد أسرته ، فهو ، فضلاً عن أنه ابن عمه ، زوج أخته ، ولم تقف علاقتهما عند هذا الحد ، لأنه على ما أرجح ، وعلى ما يظهر من شعر أبي فراس — بعد قتل الأمير سعيد والد شاعرنا ، أراد ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة أن يبرا بأولاد القتل ، فكان أبو فراس من نصيب سيف الدولة ، يعنى بتربيته وتنشئته ، ويظهر أن سيف الدولة قد قام بما وكل إليه خير قيام ، مما دعا شاعرنا في كل مناسبة ، إلى تسجيل هذا الفضل ، والاعتراف بذلك الجليل ، يذكره بينه وبين نفسه ، ويعلمه لأصدقائه ، ويقر به بينه وبين ابن عمه ، ولا يكاد يذكر هذه التربية ، إلا مفتخراً بها معتزاً ، فيقول لصديقه أبي الحصين :

وكيف ينتصف الأعداء من رجل العز أوله ، والجهد آخره
ومن سعيد بن حمدان ولادته ومن على بن عبد الله سائره
لقد فقدت أبي طفلاً ، وكان أبي من الرجال كريم العود ناضره
هو ابن عمي ، دنيا حين أنسبه لكنه لي مولى ، لا أنا كره
لا زال في نجوة مما أحاذره لا زال في نجوة مما يحاذره
ويرسل إلى الأمير ، وهو أسير في بلاد الروم ، ويقول له :

هيات ، لا أجحد النعماء منعها خلفت يا بن أبي الهيجاء فيّ أبي

بل إنه لينزل نفسه منه منزلة الولد من أبيه ، يحتمل تأديبه ، وإن كان شديداً على نفسه احتمالاً ، فقد وقع بين أبي فراس وبعض بني عمه نفرة ، فلامه الأمير عليها ، ويظهر أنه اشتد في عتابه ، فقال شاعرنا من قطعة يعاتب بها الأمير :
فصبرت كالولد التقى ؛ لبره يغضى على ألم لضرب الوالد

وكان لتربية سيف الدولة لهذا اليتيم أثر كبير في تعشقه للمجد ، وتطلبه أن
يكون جديراً بتربية الأمير ، وقد اتخذ من مربيه مثلاً أعلى له في الحرب والمجد ،
وها هو ذا يتحدث عن نفسه في إحدى المعارك قائلاً :

ولما لم أجِدَ إلا فرارا أشد من المنية أو حماما
حملت على ورود الموت نفسى وقلت لصحبتي : موتوا كراما
وهل عذر ، وسيف الدين ركنى إذا لم أركب الخطط العظاما
وأقسو فعله في كل أمر وأجعل فضله أبدا إماما
أراني كيف أكتب المعالي وأعطاني على الدهر الذماما
ورباني ففقت به البرايا وأنشأني فسدت به الأناما

وظل سيف الدولة يحنو على أبي فراس ، ويقدر ما فيه من المواهب الأدبية
والحرية ، قال الثعالبي : وكان سيف الدولة يعجب جدا بمحاسن أبي فراس ،
ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه في غزواته .
كتب أبو فراس مرة إلى سيف الدولة ، وقد سار عن حضرته إلى منزله :
« كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير سيف الدولة ، وقد وردته ورود السالم الغانم ،
موفر الظهر والضمير ، وفاء وشكرا » فاستحسن سيف الدولة بلاغته في ذلك ؛
فكتب إليه أبو فراس :

هل للفصاحة والسماحة والعلا عنى محمد
إذ كنت سيدي الذي ربيتني ، وأبي سعيد
في كل يوم أستفيد من العلاء ، وأستزيد
ويزيد في إذا رأيتك في الندى خلق جديد

وكان أبو فراس يوما بين يديه في نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة :
أيكم يحيز قولي ، وليس له إلا سيدي (يعني أبا فراس) :

لک جسمی تعلہ قدمی لم تحبلہ

لك من قلبي المكان ، فلم لا تحمله ؟
فارتجل أبو فراس ، وقال :

قال : إن كنت مالكا فلي الأمر كله
فاستحسنه ، وأعطاه ضيعة بمنبج ، تغل ألفي دينار^(١).

ولم يكن سيف الدولة ينعم عليه بالأموال وحدها ، بل ولاه من قبله مدينة
منبج ، ومقاطعتها ، عام ستة وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٧ م^(٢)) . وكان ينيبه عنه في
إمارته كلها ، إذا سافر للقتال ، وكان أبو فراس في بعض الأحيان يؤثر السفر معه ،
ومشاركته مشقات القتال ، على البقاء نائباً عنه في الشام . حدث أن أراد الأمير
النهوض إلى ديار بكر ، فاستخلف أبا فراس مكانه ، فكتب إليه راجياً منه
أن يصحبه ، وقال له :

حقاً ، لقد ساءني أمر ذكرت له لولا فراقك لم يوجد له ألم
لا تشغلني بأرض الشام ، أحرسه إن الشام على من حله حرم
فإن للفرس سورا من مهابته صخوره من أعادى أهله قم
لا يحرمني سيف الدين صحبته فهي الحياة التي تحيا بها النسم
وما اعترضت عليه في أوامره لكن سألت ، ومن عاداته نعم
وإن استخلافه في إمارته ليدل على مقدار ما كان يحمله له من ثقة فيه وتقدير
له ، يظهر أن أيضاً في أنه كان ينيبه عنه في قيادة الجيش ، يمضي لتأديب الثائرين ،
أو معاونة الأولياء والأنصار . وكثيراً ما اشترك في الغزو والقتال ، يقدم أبو فراس ،
ليستطلع الطريق ، ويشخن في الأعداء ، أو يوجهه سيف الدولة بعد المعركة ، للقضاء
النهائي على عدوه ، أو يشتركان معاً تحت راية واحدة . قال بعض الشعراء يمدح
سيف الدولة وأبا فراس ، بعد معركة اشتركا فيها :

طلعت لهم فوق الدروب سحابة تهيم بصوبى عثير وقتام

(١) ينمية الدهر للشعالي ج ١ ص ١٥ (٢) بلاشير في كتابه عن المتنبي ص ١٣٥ .

والمسلمون بمعزل منهم سوى من أفردوه لنصرة الإسلام
وأبو فراس في الهياج أمامه مثل الحسام بدا أمام حسام
وكان سيف الدولة يندب أبا فراس لبناء القلاع ، ثقة منه بقدرته على رد
عدو يهاجمها ، قال ابن خالويه^(١) : ندب سيف الدولة أبا فراس سنة ٣٤٠ « لبناء
رعبان » ، وقد خربت بها الزلازل ، فبناها في سبعة وثلاثين يوما ، ووافاه
« قسطنطين بن المستق » ليزيله عنها ، فردّه بغيظه ، فقال الشاعر في ذلك :
أرضيت ربك ، وابن عمك ، والقنا وبذلت نفسا لم تزل بذالها
وبنيت مجدداً في ذؤابة « وائل » لو طاولته بنات نعش طالها
رد الجيوش ، وقد أنتك ذليلة طعن ، ينكب بينها أبطالها
وتركت « رعبانا » بما أوليتها ثنى عليك سهولها وجبالها
وقد عرف أقاربه له هذه المكانة من سيف الدولة ، فكانوا يتخذونه
الوسيلة إليه ، إن غضب عليهم ، أو نقم شيئا : حدث أن وجد سيف الدولة على
بعض بنى عمه ، فاستعطفه أبو فراس بقوله :

إن لم تجاف عن الذنوب وجدتها فينا كثيرة
لكن عادتك الجميلة أن تغضّ على بصيرة

ولم يقصر أبو فراس في شكر تلك الأيادي والاعتراف بها ، وهو يرى
جحود هذا الإحسان كفوفاً بالنعمة ، وعدولا عن الحق :
على سيف الدولة القرم أنعم أو انس ، لا ينفرت عنى ربائب
أجحدّه إحسانه لى ، وإنى لكافر نعى - إن فعلت - موارب
وشعره بفيض إخلاصا وولاء للأمر ، يقول له :

شريتك من دهرى بذى الناس كلهم فلا أنا مبخوس ، ولا الدهر باخس
وأهدى الناس إلى سيف الدولة في بعض الأعياد ، وأكثروا ، فاستشار أبو فراس

فما يهديه إليه ، فكل أشار بشيء ، ولم يجده أبو فراس كفاءاً للتعبير عما يمكنه
له من الحب ، فكتب إليه :

نفسى فداؤك ، قد بعثت بعهدتى^(١) بيد الرسول
أهديت نفسى ، إنما يهدى الجليل إلى الجليل
وجملت ما ملكت يدى بشرى البشر بالقبول
لما رأيتك فى الأنام بلا مثال أو عدل
وبرغم أنه كان والى منبج كان كثير الإقامة عند ابن عمه الأمير ، يشناق
إليه إذا غاب عنه ، ويرجو أو بته السريعة ، إذا رحل الأمير للغزو والقتال :
إذا سار الأمير فلا هدوا لنفسى ، أو يثوب ، ولا قرارا
أراى الله طلعتة سريعاً وأصحابه السلامة حيث سارا
فإذا ألم بأبى فراس المرض يوماً ، كان حزنه لأنه لن يلقاه ، أشد من ألمه لما ناله
من المرض :

لقد نافسنى الدهر ، بتأخيرى عن الحضرة
فما ألقى من العلة ما ألقى من الحسرة
وإذا مرض سيف الدولة تمنى أن يفديه بنفسه ، ويقول له فى آخر رسالته :
لئن وهبتك نفساً لا نظير لها فما سمحت بها إلا لواهبها
وفى مجالس أنسه يرجو أن يكون بقربه ، يقاسمه جمال الطبيعة فى الربيع ،
ويشاركه بهجة الشراب فى ذلك الحين ، ويشعر بوحشة وفراغ ، إذا انفرد دونه
بهذا المجلس الشهى .

يأهبها الملك الذى أضحت له جل المناقب
نتج الربيع محاسناً ألحقنها غر السحاب

(١) كتاب البيع .

رقت ، ورق نسيمها فحكنت لنا صور الحبايب
حضر الشراب ، فلم يطب شرب الشراب ، وأنت غائب
وتلك القطعة تدل على ما وصلت إليه صلتها من عمق وقوة .
حتى إذا قدر على الشاعر الأسر رأيتاه يفيض شوقاً إلى أميره ، وحنيناً إلى
لقائه ، حتى ليجعل ذلك نشيداً يدعو به الله :

يا فارج الكرب العظيم ، وكاشف الخطب الجليل
قربه من سيف الهدى في ظل دولته الظليل
لم أرومنه ، ولا شفيت بطول خدمته غليلي
وإلى جانب حبه لسيف الدولة هذا الحب العميق ، كان شديد الإعجاب
به ، عظيم التقدير له ، وإنك لتلمس هذا الإعجاب لمساً قوياً في كل ما يتحدث به
أبو فراس عن الأمير الحمداني ، وتراه حينئذ يعلن عجزه عن تصوير خلال
الأمير فيقول :

ألا قل لسيف الدولة القرم : إنني على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تازمني خطة لا أطيعها فجدك غلاب ، وفضلك باهر
ويرى أن ما ترسيف الدولة هي التي جعلت اسم الحمدانيين رفيع الشأن ،
ومجدهم قوى الدعائم ، وملكهم ثابت الأساس :

بنى لنا العز مرفوعاً دعائمه وشيد المجد مشتداً مرائره
فما فضائلنا إلا فضائله ولا مفاخرنا إلا مفاخره
ولولا أن سيف الدولة بنى لهم هذا المجد الحديث ، ما كان أغنى عنهم
التغنى بسالف مجد الآباء والأجداد :

لئن كان أصلى من معد نجاره ففرعى سيف الدولة القرم ناصر
وما كان لولاه ، لينفع أول إذا لم يرين أول المجد آخر
وأبو فراس يلحظ ما كان يوحى به سيف الدولة من القوة المعنوية ، عند

ما يكون بين جيشه في القتال ، فإن ثباته يبعث في الجند القوة والثبات
فيقول فيه :

فكان ثباته للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناح
وهنا نقف وقفة قصيرة نتبين فيها : أكان هذا الإعجاب مدعاة لأن يفقد
أبو فراس شخصيته أمام ابن عمه ، قد يفهم ذلك من قوله :

ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
أسننته إذا لاقى طمانا صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا ، والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ؛ ففاقت وغرس طاب غارسه ؛ فطابا

غير أننا بتأمل هذا الشعر لا نجد أكثر من اعتراف بما لسيف الدولة
من مقدرة في تنشئة جيش بث فيه من روحه ، وجند درّ بهم خير تدريب ، فكانوا
عدته في الحرب ، وصوارمه في الطعان . هذا ونحن لا نزال إلى اليوم ننسب إلى
القائد النصر ، وما انتصر إلا بجنده البواسل .

أما أبو فراس فلا ينسى نفسه أمام سيف الدولة ، ولا ينسى ما يقوم به من
دور في نيل النصر ، فهو في تلك القصيدة الطويلة التي أشأها ؛ للتغنى بمجد أسرته ،
لا ينسى نصيبه في بناء هذا الجد ، ومشاركته في تأسيس هذه العلياء ، فيقول :

ولو لم يكن فخرى وفخرى واحدا لما سارعتي بالمدايح سائر
ولكنني لا أغفل القول عن فتى أساهم في عليائه ، وأساطير
وعن ذكر أيام لنا ومواقف مكاني فيها بين الفضل ظاهر

وكثيراً ما كان يمدح سيف الدولة ، ثم يثنى بمدح نفسه ، وقد يطيل في
هذا المدح أكثر من إطالته في مدح ابن عمه ، مما يدل على أن أبا فراس لم ينس
نفسه ، وإنما كان شاعراً بها تمام الشعور .

وسوف نرى ما طرأ على هذه الصلة عندما أسر أبو فراس .

فى الأسر

خاض أبوفراس مع سيف الدولة غمار كثير من الوقائع التى شبت على الحدود ، بين الروم وإمارة الحمدانيين ، وكثيرا ما سجل فى شعره ما ظفر به هو وقومه : من النصر على هؤلاء الأعداء . غير أن النجى الذى كثيرا ما توج هامته ، خانه ، فوقع أسيرا فى يد عدوه ، وكان لهذا الأسر أكبر أثر فى نفسه وشعره .

وإن الآراء المختلفة فى أسره : فمنهم من رأى أن الروم قد هاجموا إمارته ، فخرج إليهم فى سبعين من غلمانه وأصحابه يقاتلهم ، وقدر أن الناس يلحقونه ، فما اتبعوه ، وحملت الروم بعددها عليه فأسر . ومنهم من روى أن جيش الروم عندما أغار على نواحي منبج ، وافق خروج أبى فراس فى عدة يسيرة من غلمانه للصيد ، فوثبوا عليه وقاتلهم ، حتى أنحن بالجراح فأسروه . ومنهم من روى أنه أسر فى معركة من معارك سيف الدولة . وشعره يشير إلى أنه لقي جيش الروم بسبعين فارسا فحسب ، بينما الجيش المهاجم يبلغ ألف جندى ، وذلك حين يقول مخاطبا سيف الدولة أول ما أسر :

ولم تنل نفسى ولاءك لم أكن لأوردها فى نصره كل مورد
ولا كنت ألقى الألف زرقا عيونها بسبعين ، فيهم كل أشأم أنكد
واختلف المؤرخون كذلك فى مدة أسره : فأبو الحسن الديلمى يقول : إن الروم قد أسرته فى بعض وقائعها ، ونقلته إلى خرشنة ، ثم منها إلى قسطنطينية ، وذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وفداء سيف الدولة فى سنة خمس وخمسين ، فيكون قد بقى فى الأسر سبع سنين ، وقد أخذ بهذا رأى ابن العميد فى كتابه : تاريخ المسلمين^(١) .

وقال ابن خلكان^(١) بعد أن روى قول أبي الحسن : « وقد نسبوه في ذلك إلى الغلط ، وقالوا : أسر أبو فراس مرتين ، فالمرّة الأولى بمغارة الكحل ، في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وما تعدوا به خرشنة . . . والمرّة الثانية أسره الروم على منبج في شوال سنة إحدى وخمسين ، وحملوه إلى قسطنطينية وأقام في الأسر أربع سنين . »

ومن أخذ بهذا الرأي الأستاذ Bruckelmann في الترجمة التي عقدها لأبي فراس في دائرة المعارف الإسلامية^(٢) ، ورجحه الأستاذ سامي الكيالي في كتابه : سيف الدولة وعصر الحمدانيين^(٣) ؛ وإن صرح في آخر ما كتب بأنه على استعداد لأن يغير فكرته ، إذا ظهر له دليل يخالفها ، وكذلك ارتضاه الأستاذ فؤاد أفرام البستاني ، في بحثه عن أبي فراس المنشور بالشرق^(٤) ، أما الأستاذ جورجى زيدان في كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية^(٥) ، فقد أغفل ذكر أسره بخرشنة ، ولم يتحدث إلا عن مقامه بالقسطنطينية أربع سنين .

والذى أرجحه أن أبا فراس أسر مرة واحدة ، في شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (٩٦٢ م) ، حيث تكاثر أعداؤه عليه ، ولم يكن معه سوى سبعين ، فسقط في أيدي أعدائه ، وأصابه سهم ، بقى نصله في فخذه ، ونقله أعداؤه إلى خرشنة ، وهي بلدة على الفرات بالقرب من ملطية ، وكان فيها للروم حصن قوى ، ولكن يظهر أنه لم يكن أميناً على الأسرى ، فإن تلك المدينة كانت معرضة لغارات العرب ، كما يفهم ذلك من قول أبي فراس :

إن زرت « خرشنة » أسيراً فلقد أحطت بها مغيراً
ولقد رأيت النار تنهب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجلب نحونا : حوّا وحوّرا

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ (٢) المجلد الأول ص ٣٨٧ (٣) ذيل ص ١١٨

(٤) سنة ١٩٢٨ (ص ٢٦٦) (٥) ج ٢ ص ٢٤٩ .

نختار منه العادة الحسنة ، والظبي الغريزا
فنقل الأسير إلى مكان حصين ، بعيد عن متناول يد المسلمين ، في القسطنطينية ،
حيث ظل إلى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، حين فداه سيف الدولة .
أما الأسباب التي حملتني على ترجيح هذا الرأي فكثيرة :

منها أن أقرب مؤرخيه إليه ، وهم ابن خالويه (توفي سنة ٣٧٠) والقاضي
التنوخى (توفي سنة ٣٨٤) والثعالبي (توفي سنة ٤٢٩) لم يروا إلا أنه أسر مرة
واحدة ، قال القاضي التنوخى : « أقام في أيديهم أسيراً سنين . . . والأيام تتدافع
إلى أن وقع الفداء ، قبيل موت سيف الدولة ، في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة^(١) » .
وقال الثعالبي : « أسرته الروم في بعض وقائعها ، وهو جريح ، وقد أصابه سهم ، بقي
نصله في فخذه ، وحمل مشحناً بخرشنة ، ثم بقسطنطينية ، وتناولت مدته بها ، لتعذر
المفاداة » . ولو أنه كان قد أسر مرتين ما أغفل الإشارة إليها هؤلاء المؤرخون .

ومنها تهافت رواية نجاته من الأسر الأول ؛ فابن خلكان يروى أنه يقال :
« إنه ركب فرسه ، وركضه برجله ، فأهوى به من أعلى الحصن ، إلى الفرات » ؛
ولعله شعر بهذا التهافت ، فقال بعد أن روى ذلك : « والله أعلم » .

ويقبل هذه الفسكرة بروكلمان ، فيقول بعد أن روى أسره الأول : « ثم
نجح في الفرار ، وربما تم له ذلك ، بعد أن قفز قفزة جريئة » .

أما البستاني في دائرة معارفه فينبئ ذلك ، ولا يقبله ، ويقول بعد أن روى
ما نقله ابن خلكان : « وهو مما لا يعمل عليه » .

ومما يدل على أن أسيراً كأبي فراس ما كان يستطيع الإفلات على فرس كما
زعموا ، أن العدو كان يقيد أسراه بخرشنة بالأغلال في أرجلهم ، قال أبو فراس
على لسان أمه :

(١) راجع ديوان أبي فراس ج ٣ ص ٤٦١ .

يا من رأى لى بحصن خرشفة أسد شرى، فى القيود أرجلها
بقى أن يقال: إن سيف الدولة قد فداه ، وذلك أبعد ما يكون عن الصواب؛
فلو أن ذلك قد تم لتحدث به أبو فراس فى شعره ، وذكره لسيف الدولة بين
ما ذكر من مآثره عليه ، وحدثه به عندما كان أسيراً فى القسطنطينية ، يعرّيه
بفدائه ، كما فداه أول مرة ، وليس فيما بين أيدينا من شعر أبي فراس ما يثبت
ذلك ، أو يدل عليه ، بل ليس فى شعره ما يدل على أنه أسر مرتين .
ومنها أن ما يقال من أنه أرسل ، وهو فى الأسر قصيدة إلى أبي الحصين
قاضى حلب ، الذى مات سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وما يستنبط لذلك من أن
أبا فراس يجب أن يكون أسيراً قبل هذا التاريخ - خطأ لا يستند إلى دليل ،
فإن القصيدة التى أرسلها أبو الحصين إلى أبي فراس ، وهى مثبتة فى كتاب يتيمة
الدهر^(١) ليس فيها إشارة ما إلى هذا الأسر ، والقصيدة التى أرسلها أبو فراس
إليه ، والتى أولها :

كيف السبيل إلى طيف تزاوره والنوم ، فى جملة الأحباب ، هاجره
ليس فيها كذلك إشارة ما ، بل على العكس فيها ما يدل على أن أبا الحصين
كان هو الراحل البعيد ، لا أبا فراس ، وليس فى القصيدة نبذة واحدة تدل على
حزن أو أسر ، وطبعة بيروت الثانية هى التى وضعت تلك القصيدة تحت عنوان
أنها قيلت فى الأسر .

بقى بعدئذ تلك الرواية الأجنبية ، التى يذكرها الأستاذ بوران فى كتابه :
Alep autrefois et aujourd'hui ، فإنه يذكر أن سيف الدولة قد منى
سنة ٩٦٠ م (٨٣٤٩) بهزيمة شنيعة عند خرشفة ، عاد بعدها إلى حلب ، فى
ثلاثمائة فارس فقط ، وأسر البيزنطيون عدداً كبيراً من رجاله ، منهم أبو العشائر
أحد أقرباء الأمير ، والشاعر أبو فراس . وإن هناك لجالا للشك فى تلك الرواية ؛

فهي لا تتفق مع الرواية العربية في مكان الأسر ، فبينما تذكر الرواية العربية أن مكان أسره هو مغارة الكحل ، ثم نقل إلى خرشنة ، تجعله الرواية الأجنبية خرشنة نفسها ، ثم تتلاشى قيمة هذه الرواية ، إذا علمنا أن أبا فراس قد أرسل إلى أبي العشائر عدة قصائد ، حين كان أبو العشائر أسيراً في أيدي الروم ، وفي إحداها يقول :

أسرت ، فلم أذق للنوم طعماً ولا حل المقام لنا حزاماً
وسرنا معاهدين إليك ، حتى ضربنا خلف خرشنة خياماً

فهو قد كان إذاً حراً طليقاً ، حين أسر أبو العشائر ، لم يؤسر معه ، كما هو واضح من هذا الشعر ، ولم يؤسر قبله ، ولم ينزل ضيفاً بخرشنة ، لأن ذلك لو كان قد تم ، لسلاه بذلك أبو فراس ، وهون عليه خطب الأسر . ولم يكن سيف الدولة قد فداء — كما يقال — ولو أنه كان فداء ، لذكره لأبي العشائر ، كما ذكر له أن سيف الدولة سبق أن أفتدى ابن عمه أبا وائل ، فقد قال :

وقيل : لها سيف الهدى ، قلت : إنه ليفعل خير الفاعلين ، ويكرم

أما انتاش من مسّ الحديد وثقله أبا وائل ، والبيض بالبيض تحكم

من ذلك يبدو أن أبا فراس لم يؤسر في ذلك التاريخ ؛ ولا قبل ذلك التاريخ ، ولهذا نرجح أنه أسر مرة واحدة ، في شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وقد حاصره الروم وأسروه ، ثم تركوا منبج ، ذاهبين إلى حلب التي دخلوها ، وأعملوا فيها القتل والنهب والتدمير ، في ذى القعدة ، من تلك السنة عينها .

أصيب أبو فراس إذاً وهو يدافع عن مدينته ، بسهم بقي نصله في فخذه ، واضطر إلى أن يشق فخذه ، ليخرج منه هذا النصل ، وقد قال في ذلك :

فلا تصفن الحرب عندي ، فإنها طعماً ، مذ بعت الصبا ، وشراباً

وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابي

ويقال إن نصل السهم بقي في بدنه سنتين ونصفاً ، وشق عليه ست مرات ،
حتى خرج .

وقطع الشاعر طريقه إلى منفاه تشتد به العلة ، ويؤله الجرح ، فهو يشكو ،
ويتجه إلى الله ، سائلاً أن يكشف عنه كرباً ، قائلاً :

يا فارح الكرب العظيم ، وكاشف الخطب الجليل
كن يا قوي لذا الضعيف ، ويا عزيز لذا الدليل

والظاهر أن الجراح التي نالته قد ثقلت عليه في منفاه ، فكتب إلى أمه ،
يحاول أن يجلب إلى قلبها الصبر ، فأبى ما فيه من الأسى إلا أن يكون شعره
حزيناً باكياً ، يثير أمه ، ولا يبعث إليها الهدوء . وهل تستطيع أمٌّ أن تسمع
ابنها يقول :

مصابي جليل ، والعزاء جميل وظنى بأن الله سوف يزيل
جراح تحاماها الأساة ؛ مخافة وسقمان : باد منهما ودخيل
وأسر أفاقيه ، وإيل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول بي الساعات ، وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول
ولا يملأ قلبها الهم ، وتذرف الدمع سخينا ، برغم ما يسوقه لها من الحكم
وحوادث التاريخ ؟!

وأرسل رسالة أخرى إلى سيف الدولة ، يسأله أن يفديه ، حتى لا يموت
موسدا بين أيدي النصارى ، فيقول له :

دعوتك للجنف القريح المسهد لدى ، وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بخلا بالحياة ، وإنها لأول مبذول لأول مجتهد
ولكنني أختار موت بنى أبي على سروات الخيل ، غير موسد
وآبى ، وتأنى أن أموت ، موسدا بأيدي النصارى موت أكدا كبدا
ولقد كانت قصيدة أبي فرس إلى أمه ، وما كان يرد إليها من أخبار الأسرى ،

سبباً في مرض هذه الأم ، فتركت منبج إلى حلب ، تريد من سيف الدولة أن يقدي واحدها أبا فراس ، وتضرعت إليه ، فلم تجد عنده ما كانت تؤمل من حسن الإيجاب « ووافق ذلك عنفاً من المستق بأبي فراس ومن معه من الأسرى ، وزيادة في إرهابهم ^(١) » ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة طويلة ، أحب أن أقف قليلاً عند بعض أبياتها ، فإنها تاتي الضوء على حياة الأسرى في ذلك الحين .
بدأ الشاعر قصيدته بوصف ما تجده أمه : من الحزن والمرض ، والوحدة ، والأسى لفراقه ، فهي :

عليـلة بالشآم ، مفردة	بات بأيدي العدا معلها
تمسك أحشاءها على حرق	تطفئها ، والمهوم تشعلها
إذا اطمانت وأين ؟! أوهدأت	عنت لها ذكرى تقلقلها
تسأل عنا الركبان جاهدة	بأدمع ما تكاد تمهلها :
يا من رأى لي بمحصن خرشنة	أسد شرى ، في القيود أرجلها
يا من رأى لي الدروب شاحخة	دون لقاء الحبيب أطولها
يا من رأى لي القيود موثقة	على حبيب الفؤاد أثقلها

وصف طبيعي ، لا غلوفيه ولا إغراق ، لأم وحيدها بين يدي أعدائه ، لا تدري متى يثوب ؟ وتجد أبا فراس شجاعته ، وتعود إليه ذكريات حروبه ، فيحدث أمه بأن تلك هي عادة الحروب ، فهو إذا وقع اليوم أسيراً فطالما أسر ، وإذا كان يشرب اليوم كأساً مريرة ، فطالما سقى بها غيره من قبل ، حتى إذا فرغ من حديث أمه ، اتجه إلى ابن عمه ، فأطال معه الحديث ، رفيقاً مرة وعنيفاً أخرى ، يترفق به ، ويبدى له غاية الحب والوفاء ، اللذين كان جديراً بسيف الدولة أن يقابلهما بزد الأم الملتاعة رداً جميلاً :

(١) بنيمة الدهر ج ١ ص ٥٠ .

يا سيدا ، ما تعد مكربة إلا وفي راحتيه أكلها
ليست تنال القيود من قدمي وفي اتباعي رضاك أحملها
بأى عذر رددت والهة عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها
سمحت منى بمهجة كرمت أنت ، على ياسها ، مؤملها
إن كنت لم تبذل الفداء لها فلم أزل فى رضاك أبذلها

ثم يعنف عليه ، ويحاسبه ، ويسأله كيف يستطيع أن يعيش الحياة الهائلة
الوادعة ، وهم يعانون مرارة الأسر ، وما فيه من ذل وإرهاق ، وهنا يضع
الشاعر أمامنا ، صورة حياة هؤلاء الأسرى ، وما كانوا يلاقونه : من الضر والعناء ،
إذ يقول :

يا واسع الدار ، كيف توسعها ونحن فى صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب ، كيف تبدله ثيابنا الصوف ، ما نبذلها
يا راكب الخيل ، لو بصرت بنا نحمل أقيادنا ، وننقلها
رأيت فى الضر أوجها كرمت فارق فيك الجمال أجملها

فهم فى الأسر يلبسون خشن الثياب ، ولا يبدلونهم ، يسرون والقيود فى
أرجلهم ، وعملهم تحت الحجارة وحملها ، وهم يشبهون فى ذلك المسجونين عندنا فى
سجن طره . وليس احتمال مثل هذا السجن يسيراً ، على رجل كأبى فراس ، فكان
شديد البرم والضيق ، حتى ليفضل الموت على الحياة ، فقد كتب مع هذه القصيدة
هذين البيتين الضجرين :

قد عذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل
إنا إلى الله ، لما نابنا وفى سبيل الله خير السبيل

والظاهر أن سيف الدولة لم يقابل أم الشاعر بصدر رحب ، ولم يجبها إلى
ما تطلبه من فداء ابنها ؛ لهذه الحالة النفسية المستولية على الأمير ، بعد أن خرب

الروم عاصمة ملكه ، ولأنه على ما يظهر كان غاضباً على أبي فراس ، فقد كان سيف الدولة معتزاً بنفسه ، إلى آخر حدود الاعتزاز ، وربما كان البرم الذي استولى على الشاعر ، قد دفعه إلى أن يفكر في الالتجاء إلى غير سيف الدولة يفديه ، وربما تحدث بذلك ، فنقل إلى سيف الدولة حديثه ، فغضب ، ويدلنا على ذلك أن أبا فراس يتحدث إلى ابن عمه ، كأنه يعتذر عن هذا التفكير ، أو يلتمس له سبباً ؛ فيقول له :

فلا تكلنا فيها إلى أحد معلماً محسناً يعلمها
لا يفتح الناس باب مكرمة صاحبها المستغاث يقفلها
أينبري دونك الكرام لها وأنت ققامها وأحملها
فإن سألنا سواك عارفة فبعد قطع الرجاء نسألها
إذا رأينا أولى الكرام بها يضيعها جاهداً ، ويهملها

ويروى الثعالبي أن أبا فراس كتب إلى سيف الدولة : « مفاداتي إن تعذرت عليك فأذن لي في مكاتبة أهل خراسان ، ومراسلتهم ؛ ليفادوني ، وينوبوا عنك في أمري »^(١) ، فأجاب سيف الدولة بكلام خشن ، وقال له : « ومن يعرفك بخراسان ؟ » . ولقد كان هذا الجواب سبب ثورة عنيفة في نفس أبي فراس ، فهو يقبل كل شيء ، حتى الأسر ، بنفس راضية ، ولكنه لا يقبل أن يرمى بالخنول ، فأرسل إلى ابن عمه قصيدة نائرة ، يعتب عليه فيها عتباً صريحاً ، ويدفع عن نفسه تهمة الخنول ، ويقول له : إن الخنول إذا استطاع أن يلم به ، فليس له من سبب ، إلا أنه قصر نفسه على خدمة سيف الدولة ، ولم يفارق مدينة حلب :

وما غضى مني هذا الإيسار ، ولكن خلصت خلوص الذهب
فقيم يقرعني بالخنول مولى به نلت أعلى الرتب

وكان عتيذا لدىّ الجواب ، ولكن لهيبته لم أجب
فلا تنسبن إلىّ الخول ، عليك أقت ، فلم أغترب
وأصبحت منك ، فإن كان فضل ، وإن كان نقص فأنت السبب
فإن خراسان إن أنكرت علاى فقد عرفتها حلب
ثم يعود فينكر أن يكون ثمت ما يدعو إلى خفاء اسمه ، ونقصان شهرته ،
فيقول :

ومن أين ينكرنى الأبعدون ؟ أمن نقص جدّ ؟ أمن نقص أب ؟
أست وإياك من أسرة ويني وبينك عرق النسب ؟ !
وداد تناسب فيه الكرام ، وتريية ومحمل أشب
ونفس تكبر إلا عليك ، وترغب إلّاك عن رغب
ولعل السبب في تفكير أبي فراس في الالتجاء إلى الخراسانيين ، أن هؤلاء
كانوا في ذلك الحين متحمسين أشد التحمس ؛ للدفاع عن الثغور الإسلامية ، ويروى
المؤرخون أن قائدا وصل إلى الشام من خراسان ، « ومعه خمسة آلاف متطوع
للجهاد ، فأخذهم سيف الدولة ، وسار بهم نحو بلاد الروم ، فوجدوا الروم
قد عادوا ، فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور ، وعاد أكثرهم إلى بلادهم ^(١) » .
ويظهر أن أبا فراس في أول عهده بالأسر ، كان يعتقد أن قومه — وغزو الروم
لبلادهم لا يكاد ينقطع ، وأبو فراس بينهم مشهور بالبسالة والقوة — لا يلبثون أن
يبدلوا ما يطلبه الروم من فداء لبطلهم ، حتى ينتفعوا بمواهبه ونبوغه ، وقد كان
أبو فراس معجبا بهذه المواهب ، مؤمنا بأنه أوتي منها ما لم يؤت سواه ، مقتنعا
بأن غيره لن يسد فراغا خلاه ، ولن يملأ المكان الذي كان يشغله ، وإذا كان
الأمر كذلك ، فلا بد أن قومه سيسرعون إلى فدائه من الأسر .

(١) محاضرات الحضري في تاريخ الدولة العباسية ص ٤٣٦ .

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يفقد البدر
ولو سدّ غيري ما سدّدت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر
ولكن الأيام تمضي والحروب تتوالى ، وقومه لا يسرعون إلى فدائه ، كما كان
يعتقد ، بل لقد استبدلوا به غيره ، فيأسي ، ويقول :

إني أغار على مكاني أن أري فيه رجالا ، لا تسد مكاني
أو أن تكون وقية أو غارة مالي بها أثر مع الفتيان
ولم يسرع سيف الدولة إلى فدائه ، فظل في الأسر أربع سنين ، كانت حياته
فيها بئسة كل البؤس ، شقية كل الشقاء ، حتى صح له أن يصرخ بعد عامين
قضاها في ديار الروم ، ملتصقا وقتا يسر به فؤاده :

أما ليلة تمضي ، ولا بعض ليلة أسر بها هذا الفؤاد الموحجا ؟
وكيف يستطيع هذا الفؤاد أن يسر ، وقد ترك في الشام آله وأحبابه ، لا يدري
متى يراهم ومتى يعود إليهم :

إن في الأسر لصبا دمه في الخد صب
هو في الروم مقيم وله في الشام قلب
ولم يكن شوق أهله الأذنين إليه وإلى مجالسه وأحاديثه ، بأقل من شوقه إليهم :
تشوقني الأهل الكرام ، وأوحشت مواكب بعدي عندهم ، ومجالس
فهنالك في منبج كانت تقيم أمه ، التي كانت له في مكان الأب والأم معا ،
وقد أصبحت عجوزاً مريضة تحتاج إلى من يسهر عليها ، ويرعاها ، فيؤمله بعده
عنها وبكاؤها عليه ، ويدفعه ذلك إلى الإلحاح على ابن عمّه في طلب الفداء ،
ولو أن في هذا الطلب غضاضة عليه :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنية
ولكان لي عما سألت من الفدا نفس أبية
لكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدنية

وأرى محاماتي عليها أن تضام من الحمية
أمت بمنيج حرة بالحزن من بعدى حرية
ولا يملك لها هذا الابن الأسير إلا أن يدعوها إلى الصبر وجهيل الأمل ،
يا أمنا ، لا تيأسي لله الطاف خفيّة
كم حادث عنا جلا ، ومكم كفافا من بليّة
أوصيك بالصبر الجميل ، فإنه خير الوصيّة
وهناك في منبج ، إلى جانب أمه التي رضاها عنه أقوى ما كان يعتز
به ، وأنفس ما يدخره — أطفال صبية صفار ، يتخيلهم أمامه ، يفرحون ويمرحون ؛
وأصدقاء أثيرون عنده ، قضى معهم عهد الشباب الغض والطفولة للرحمة ؛ وإن
ذكريات هؤلاء الأعزاء جميعاً لتتكاثر على قلبه ، وتزاحم فيقول :
لأيكم أذكر وفي أيكم أفكر
وكم لي على بلدتي بكاء ومســـــــــــــــتعبر
ففي حلب عدتي وعزى والمفخر
وفي منبج من رضا ه أنفس ما أذخر
ومن حبه زلفة بها يكرم المحشر
واصبية كالقراخ ، أكبرهم أصغر
وقوم ألفنام وغصن الصبا أخضر
فخرني ما ينقضي ودمي ما يفر

وكان شوقه إلى ملاعب صباه وطفولته بمنيج قويا عنيفا ، فلطالما تصور تلك
الأمّا كن واضحة في ذهنه ، تقف نفسه عند كل واحد منها ، يستوحى جمال
الطبيعة فيه ، ويستذكر ما كان يشعر به من اللذة والبهجة ، عندما كان يقف
بتلك النواحي الأثيرة لديه ، فيحاول أن يستبدل بصورتها الطبيعية التي لا يستطيع
أن يراها — صورة يرسمها القلم لها ، ويسجل في الصورة أسماءها المحبوبة إلى قلبه :

قف في رسوم « المستجاب » ، وحى أكناف « المصلى »
« فالجوسق » اليمون ، « فالسقىا » بها ، فالنهر أعلى
تلك المنازل والملاعب ، لا أرها الله محلا
حيث التفت رأيت ماء ساجحا ، وسكنت ظلا
تر دار « وادى عين قاصر » منزلا رحبا مطلا
وتحل « بالجسر » الجنان ، وتسكن الحصن المعلى
وإذا نزلنا « بالسواجير » اجتئنا العيش سهلا
والماء يفصل بين زهر الروض في الشطين فصلا
كبساط وثى ، جرّدت أيدي القيون عليه نصلا

وإن مثل هذا الأسير الذى ارتسمت في ذهنه تلك الملاعب والمنازل ليتمنى
أن يفك عنه الوثاق ؛ ليقضى حقوق تلك الديار التى ملأ الشوق إليها فؤاده ،
فيقف لدى كل مكان يبيل برؤيته غليله ، ويروى ظمأه لو استطاع :
فرض على لكل دار وقفة تقضى حقوق الدار والأجفان
مثل هذا الأسير المبعد عن الأهل والوطن تمر به الأيام متثاقلة ، وتمضى به
الليالى طويلة متسلكنة :

تطول بى الساعات ، وهى قصيرة وفى كل دهر لا يسرّك طول
ويستقبل العيد حزينا كئيبا ، ولا نجد غريبا منه أن تثور نفسه ، عندما يستمع
إلى ورقاء تغرد فوق شجرة عالية ، فيحسب هذا التغريد بكاء وعويلا ، فيأنس
بتلك الحمامة ، أنس الجار إلى الجار ، ويطارحها ما يحس به : من ألم النوى وعذاب
الأسر ، فيقول :

أقول ، وقد ناحت بقربى حمامة : أيا جارتى ، هل بات حالك حالى
معاذ الهوى ، ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الموم ببال
تعالى ترى روحا لدى ضعيفة تردد فى جسم يعذب بال

ولقد اعترف الشاعر صراحة وهو في الأسر ، بأن روحه ضعيفة لا تطيقه ،
ونطق شعره بهذا الجزع الذى استولى على نفسه ؛ فكان ذلك مدعاة لأن يرسل
إليه بعض أصدقائه يوصيه بالصبر والتجملد ، وكتب هو إلى أخيه يحذنه عن جزعه ،
ونفسه التى تحاول درء هذا الجزع ، وإخفاءه عن الحاسدين :

وإني للجزاع ، ولكن همتى تدافع عني حسرة وتغالب
ورقة حساد ، صبرت ؛ اتقاء لها جانب منى ، وللحزن جانب
فكان بإعلانه إخفاء الجزع معترفا به ، مقرأ بماله من صولة على نفسه .
وكثيراً ما لام نفسه على هذا الجزع الذى شمله ، فيذكر أنه ما دام قائداً فى الحرب
فهو معرض للأسر والقتل ، وما دام قد رضى بأن يكون معرضاً لهما فلا وجه
للجزع ، وإذا كان قد آلم أهله بأسره ، فقد سرهم من قبل بنصره ، وإذا كان
قد وقع أسيراً ، فقد كان من قبل آمراً :

مالى جزعت من الخطوب ، وإنما أخذ للمهيمن بعض ما أعطانى
ولقد سررت ، كما غمت عشائرى زمننا ، وهنأتنى الذى عزانى
وأسرت فى مجرى خيولى غازيا وحبست فيما أشعلت نيرانى
وإذا صح أن الروم لم يدعوا أباً فراس مع بقية الأسرى ، بل أفردوا له بيتاً
خاصاً به ، فلقد كان يشبه تلك الحياة الخاملة التى لا عمل فيها ، يضطر إليها شاب ،
ملء إهابه صحة وعزم وآمال ، يريد أن ينشئ ملكاً وأن يسكون دولة ؛ فيأسى
على ماضيه ، ويوازن بينه وبين هذا الحاضر الخامل الذى يعيش فيه ، غير مستطيع
أن ينفع وأن يضر فيقول :

تمرت الليالى ، ليس للنفع موضع لدى ، ولا للمعتفين جناب
ولا شدتلى سرج على ظهر سابح ولا ضربت لى بالعراء قباب
ولا برقت لى فى اللقاء قواطع ولا لمعت لى فى الحروب حراب
وكان ذكر الماضى يدفعه إلى الفخر به ، وذكر بلائه الحسن فيه ، وذلك

ضرب — ولا ريب — من ضروب التسلية ، تخفف اللوعة على نفوس المحرومين ،
فسمعنا الشاعر يقول ، وهو في الأسر :

وإني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشرر
وإني لجرار لكل كتبية معودة ألا يخل بها النصر
فأصدي ، إلى أن ترتوى البيض والقنا

وأسغب ، حتى يشبع الذئب والنسر
ويارب دار لم تخفني منيعة طلعت عليها بالردى أنا والقجر
بل لقد يشتط ويبالغ ، إرضاء لنفسه الحبيسة ، فيقول :

وأنا الذي ملأ البسيطة كلها ناري ، وطنب في السماء دخاني
إن لم تكن طالت سني فإن لي رأي الكهول وغيره الشبان
ولقد ظل الشاعر حيناً طويلاً يحاسب نفسه : أكان محقاً في التعرض للأسر ؟
أم كان الأجدر به أن يفر من وجه العدو ؟ ولكنه ينتهي إلى الاقتناع بأن ما قام
به هو الرأي ووجه الصواب ، وإن كان كثيرون قد خالفوه في نهجه ، عن حب له ،
ورغبة في أن يعيش طليقاً ، لا يد للعدو عليه ، أو عن حسد له ، ورغبة في الخط
من شأن خطته التي أوقعته في الأسر .

لم يتردد أبو فراس ، بل فضل الأسر على الفرار ، معتقداً أن في الفرار
العار كل العار :

وقال أصيحابي : الفرار ، أو الردى فقلت : هما أمران ، أحلاهما مر
ولكنني أمضي لما لا يعينني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ويرسل إلى أحد أصدقائه قاتلاً :

تجشمت ، خوف العار ، أعظم خطة وأملت نصراً ، كان غير قريب
ويقول لسيف الدولة ، محدثاً له عن هؤلاء الذين زينوا له الفرار ،
يستنكر رأيهم :

يقولون: «جنب». عاقبة ماعرقها شديد على الإنسان ما لم يعود
قلت : أما والله ، ما قال قائل : شهدت له في الخيل الأم مشهد
ولكن سألقاها : فإما منية هي الظن ، أو بنيان عز مشيد
وكان هذا الأسر مجالا ، كما قلت ، لحساد أبي فراس ، والطاعنين في
كفاءته ومقدرته .

والناس : من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ، ولأم الخطيء المبل
وقد رد على هؤلاء أبو فراس رد البطل الذي يقدم على الموت ، وهو يرى
الموت ، وما هو ذا يقول لأخيه أبي الهيجاء ، في قصيدة أرسلها إليه :
نكائر لولمي على ما أصابني كأن لم تنب إلا بأسرى النوائب
يقولون : لم ينظر عواقب أسره ومثل من تجري عليه العواقب
ألم يعلم الذلان أن بني الوغى كذلك : سليب بالرماح ، وسالب
أرى ملء عيني الردى ، فأخوضه إذ الموت قدامي ، وخلني المعاييب
ومن شرفي ألا يزال يعيبي حسود على الأمر الذي هو عائب
ولم يكن أبو فراس يعتقد أن أسره واخفاقه في الحرب ، نشأ عن تقصير منه
في الدفاع ، أو في الكر والفر وصنوف الجهاد ، فذلك أبعد الأشياء عنه ، ولكنه
أسر ، لأن إرادة الله القوى هي التي مهدت لهذا الأسر ، وقضاء الله لا غالب له ،
ولا هارب منه :

أسرت ، وما صبحي بعزل لدى الوغى ولا فرسى مهر ، ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ، ولا بحر
كان أبو فراس إذا يعتقد أنه لم يقصر في واجب ألقي على عاتقه ، بل لقد
كان يستعرض ماضيه كله ، فلا يجد فيه ما يشين اسمه ، أو يفض من قيمته ،
فإذا خطر بباله أنه ربما مات في الأسر ، هون عليه استقبال هذا الموت ما كان
يخالجه من الإيمان بأنه خلف وراءه ذكراً طيباً .

أبيت مبرأ من كل عيب وأصبح سالماً من كل ذام
ومن أبقى الذى أبيت هانت عليه موارد الموت الزوام
ثناء طيب ، لا خلف فيه وآثار كآثار الغمام
وإلى جانب ما كان يقاسيه أبو فراس فى هذا الأسر ، من المرض ، والبعد
عن الأهل ، والاغتراب عن الوطن ، والاضطرار إلى حياة فارغة من المجد
والبطولة ، ومقاساة ما كان يرميه به أعداؤه من خطل الراى — كان يلاقى من
أسريه الإهانة فى الكرامة ، ومحاولة المساس بالدين ، فى مناظرة جرت بينه
وبين الدمستق ، قال له هذا : « ما لكم والحرب ، إنما أتم كتاب » ؛ فقال له
أبو فراس : « نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ وذكر له
أسماء الوقائع وأسماء الأسرى ، حتى يكون لكلامه ميزة الصدق ، والابتعاد عن
الفخر الكاذب ، الذى لا دليل عليه ، وفيها يقول :

أنزع يا ضخم اللعايد أننا ونحن أسود الحرب ، لانعرف الحربا
فويلك من للحرب ؟! إن لم تكن لها ومن ذا الذى يضحى ويمسى لها ترابا
لقد جمعنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسداً ، وكنت بها كلبا
بأقلامنا أجحرت أم بسيوفنا ؟! وأسداً الشرى قدنا إليك أم الكتبا ؟!
والقصيدة الثانية أكاد استنبط منها أنه قد كان هناك تبشير بالدين المسيحى
بين أسرى المسلمين ؛ ففيها يعجب أن الدمستق ، محاطا ببطارقه ، يحاول أن
يشرح له الحلال والحرام ؛ فإذا كان الدمستق يجرؤ على أن يخاطب أبا فراس ،
(ومكانته فى الجيش ومن الأمير الحمدانى مكانته) ، فإن غير أبى فراس أقرب
منه منزلاً ، وأدنى إلى أن ينال منه الترغيب والترهيب يقول أبو فراس فى ذلك :

أما من أعجب الأشياء علج يعرفى الحلال من الحرام
وتكفنه بطارقة تيوس تبارى بالعنانين الضخام
لهم خلق الخير فلست تلقى فتي منهم يسير بلا حزام

ولم يكن يخفف على أبي فراس شدة أسره طول هذه المدة ، سوى ما كان من تزاور بينه وبين الأسرى ، ولا سيما أخوه أبو الفضل ، فقد جعل ملك الروم يوم السبت يوما يتزاورون فيه .

كانت تلك الحياة التي حاولنا رسمها مدعاة إلى أن يلح أبو فراس على ابن عمه سيف الدولة أن يفديه ، وقد رأينا فيما مضى كيف أرسل إليه يخبره بأنه يخشى الموت بين يدي عدوه ، ورأينا كيف ذهبت أمه تستعطف سيف الدولة أن يفدى وحيدها ، وقلنا : لعل السبب في إغفال سيف الدولة أمر أبي فراس هو ما سمعه من أن الأسير فكر في الالتجاء إلى غيره ، ثم ها هي ذى الأيام تمضي ، وسيف الدولة يسوف ولا يفدى ، وأبو فراس لا يفتأ يرسل إليه القصائد ، يرجوه أن يبذل له الفداء ، ويحدثه حديثاً مسهباً عن الدوافع التي تحمل سيف الدولة على فدائه ، ويرسل إليه الشعر الباكي الشاكي ، عساه يجد السبيل إلى قلبه ، ويلبس موضع العطف من فؤاده .

كان يحدث سيف الدولة حيناً عن فرقه من الموت في ديار الغربة ، ويذكر له الأيادي التي غمره بها طول عمره ، وسوف يكون فداؤه من أعظم تلك الأيادي وأكرمها ، ويحدثه بأن موته على تلك الطريقة سوف يشين علاءه ويعيبه . ويثيره حيناً بأن كلب الروم مجد في فداء أمراءه ، الذين كانوا عند سيف الدولة ، فهل يسوغ أن يكون سيف الدولة أقل منه رافة وعظفاً . ويذكره طورياً بأن هذا الفداء لن يعود نفعه على الأسير فحسب ، ولكن فائدته ستعود عليهم ، قبل أن تعود عليه ؛ فليس من السهل أن يجدوا فتى مثله ، يدافع عن أحسابهم بلسانه ، ويطاعن عنهم بحسامه . وطوراً يصارحه بأنه طالما أورد نفسه موارد المهلكة ، في سبيل نصرته ، بل إن هذا الأسر كان بسبب الدفاع عن مملكة سيف الدولة ، وإن أبا فراس لنصيره ومعينه ، وليس اثنان يتعاونان على بناء المجد ، يقوم مقامها واحد ، مها كانت قدرته . ثم لقد اعتاد شاعرنا العيش بجوار سيف

الدولة ؛ فكيف يستطيع أن يعيش بعيداً عنه .

بهذا ومثله كان يحث ابن عمه على فدائه ، ولننصت إليه وهو يخاطبه قائلاً :
ولا تفعدن عني — وقدسيم فديتي — فليست عن الفعل الكريم بمقعد
فكم لك عندي : من أياذ وأنعم ؟ رفعت بها قدرى ، وأكثرت حسدى
تشبت بها أكرومة ، قبل فوتها — وقم في خلاصى صادق العزم ، واقعد
فلا كان كلب الروم أراف منكم وأرغب في كسب الثناء المخلد
مق تخلف الأيام مثلى لكم فتى طويل نجاد السيف رحب القلند ؟
فإن تفتدونى تفتدوا شرف العلا وأسرع عواد إليها معود
وإن تفتدونى تفتدوا لعلام يطاعن عن أعراضكم بلسانه فتى غير مردود اللسان أو اليد
ولو لم تنل نفسى ولأورك لم أكن ويضرب عنكم بالحسام المهند
فلا ، وأبى ، ما ساعدان كساعد لأوردها في نصره كل مورد
فلا يحرمنى الله قربك إنه ولا ، وأبى ، ما سيدان كسيد
نم يعتز أبو فراس بنفسه وبطولته ، وحسن جهاده الروم ، فيذكر سيف الدولة
بأنه لو لم تكن صلة القرابة بينهما قوية قريبة ، لكانت صيانة الإسلام تستدعى
الاحتفاظ بأبى فراس يحوطه ، وينوب عن الأمير في الدفاع عنه :

فإن لم يكن ود قريب نعدّه ولا نسب دون الرجال قراب
فأحوط للإسلام ألا يضيعنى ولى عنه فيه حوطة ومناب

ولكن الأمير لا يفديه ، وتمضى الأيام والشاعر يوالى رسائله ، يستبطنه
ويشكو إليه هذا الأسر المرير . فهل كان إغضاء سيف الدولة عن الإسراع إلى
فدائه ناشئاً عن شواغل أهت الأمير عن ابن عمه ؟ أو أنه لم يرد أن يخصه بالفداء
حتى يكون هناك فداء عام لأسرى المسلمين ؟ أو أن إهماله كان مقصوداً من الأمير ؟
أما أنا فلا أشك في أن سيف الدولة لم يسرع إلى فك إisar ابن عمه قصداً ،

ولا أشك في أن قلب سيف الدولة كان متغيراً على أبي فراس ، ولا أشك في أن الصفاء الذي كان يسود علاقتهما قد شابه شيء من الكدر والجفاء . ودليلنا على ذلك هذا الشعر الكثير ، الذي يحدثنا عن عتاب سيف الدولة ، وما كان يبذله الشاعر من الجهد في رد هذا العتاب ، ولست أعرف السبب الحقيقي الذي دفع الأمير إلى العتب على ابن عمه ، ولكن مما لا شك فيه أن بعض أصدقاء أبي فراس قد غدر به ، وبعض حساده قد شمت فيه ؛ فمن المعقول أن يكون هؤلاء وأولئك قد اتهموا فرصة أسره ، وأوغروا صدر الأمير عليه ، ولا أدري بم ؟ ولا نصيب هذه التهمة من الصحة . وكل ما أستطيع إثباته هو أن سيف الدولة قد عتب على أبي فراس ، وأن الشاعر قد بذل جهده في أن يرد هذا العتب ، وأن يستعطف قلب الأمير بأرق ما عرف من أساليب الاستعطاف ، فهو يقول له :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده أتاب بمرّ العتب حين أتاب ؟
فليتك تحلو ، والحياة مريرة وليتك ترضى ، والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
ويظهر أن الأمير قد عنف في العتب عليه وجفاه ، ولكن أبا فراس لم يقابل هذا العتب إلا بالصفح ، ولم يجازه عن الجفوة إلا بالرفق ، يتلطف معه ، فلا يحاسبه على الجفاء ، ولا يعتقد بالظاهر ما دام واثقاً منه بالوفاء الصحيح :

لم أواخذك بالجفاء ؛ لأننى واثق منك بالوفاء الصحيح
وأحياناً يقسو على سيف الدولة ، ويشور ، ويشدد في الثورة ، حتى يقول :
زمانى كله غضب وعتب وأنت علىّ والأيام إلـب
وعيش العالمين لديك سهل وعيشى وحده بفنـاك صعب
وأنت ، وأنت دافع كل خطب مع الخطب الملم علىّ خطب
إلى كم ذا العتاب ، وليس جرم وكـم ذا الاعتذار ، وليس ذنب ؟

ولكنه لا يلبث أن يشوب إلى الرقة واللين ، يستل بهما ما في قلب الأمير ،
فيقول له :

قل ما شئت فيّ ، فلي لسان ملئ بالثناء عليك ، رطب
وعاملني بإنصاف وظلم تجدني في الجميع كما تحب
وكان من أسباب عتب سيف الدولة عليه ، وتنكره له ، أن أبا فراس كان
يستبطئه ، ويعاتبه على هذا البطء ، فيبادر أبو فراس باسترضاء الأمير ،
ويرسل إليه :

تنكر سيف الدين ، لما عتبته وعرض بي ، تحت الكلام ، وقرعا
فقولا له : يا صادق الود ، إني جعلتك مما رايت الدهر مفزعا
قلو أنني أكنفته في جوانحي لأورق ما بين الضلوع ، وفرعا
وما لا ريب فيه أن هذا التنكر ، قد أمض أبا فراس ، وآله ، وبذل جهداً
ليس باليسير في استرضاء أميره ، لأنه ما دام عاتبا ، لن يستطيع أن يظفر بالحرية
التي يشتهيها :

وهبت شبابي ، والشباب مضنة لأبلج من أبناء عمي أروعا
أبيت معنى من مخافة عتبه وأصبح محزوناً ، وأمسى مروعا
وإذا كان بعض أصدقائه قد غدر به ، وحساده قد أوغروا صدر الأمير عليه ،
فإننا نجد في شعر أبي فراس ثورة جاححة ضد الصداقة الكاذبة ، والمودة المتقلبة ،
وهجاء مراهل هؤلاء الحساد الذين يظنون أن في وسعهم أن يغفوا غناه ؛ وإن يملثوا
مكانه . ولقد عظم شعوره بالغدر ، حتى ليحسب أن الدنيا كلها غادرة ، وأنه لا عهد
لصاحب ، ولا وفاء لصديق :

تناساني الأصحاب إلا عصابة ستلحق بالأخرى غسداً ، وتحول
أقلب طرفي لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء ، حيث تميل
أكل خليل ، هكذا ، غير منصف ؟! وكل زمان بالكرام بخيل ؟!

أما حساده فكان يسخر بهم ، وكان شدة شعوره بنفسه يوحى إليه ، كما ذكرنا ، بأن له حسادا كثيرين ؛ وكان عندما يذكر هؤلاء الحساد ، لا يلبث أن يرد كيدهم في نحورهم ، فيذكر أنه لم يلق في الأمر هوانا يسره ، ولم يصادف إلا رفعة وإجلالا ، ثم يمضى معهم فارضا لهم تحقيق آمالم فيه ، تلك الآمال التي تدور حول موته ، فيسائلهم أيشمتون به ، والموت نصيبهم لا محالة ، ترى ذلك الخاطر في قوله :

من كان سر بما عراني ، فليمت ضراً وهزلاً
لم أخل فيما نابى من أن أعز ، وأن أجلاً
رعتُ القلوب مهابة وملأتها فضلاً ونبلاً
ما غص منى حادث والقرم قرم حيث حلاً
أنى حلتُ فإنما يدعوني السيف المحلى
فلئن خلصت فإنتى شرقي المدا طفلاً وكهلاً
ما كنت إلا السيف زاد على صروف الدهر صقلاً
ولئن قتلت فإنما موت الكرام الصيد قتلاً
لا يشمتن بموتنا إلا فتى يفنى ويبلى
فإذا تيقن أنه في إثرنا رحلاً فرحلاً
قليله عن ذاك السرور ، فإنما يبلى ونبلى
يغتفر بالدنيا الجهول ، وليس في الدنيا مملاً

ولم يقف الأمر عند أصدقاء غادرين ، وحساد واشين ، أو غروا صدر الأمير عليه ، بل كان بعض أهله يكره خلاصه من الأسر ، ويتمنى هلاكه ، ويدس له عند سيف الدولة ، وقد عاتبهم أبو فراس عتاباً رقيقاً ، فيه خمر بنفسه ، وتفان في الوفاء لهؤلاء الأقرباء ، الذين لا يعرفون حق القرابة ، يقول لهم :

تمنيتم أن تفقدوني ، وإنيما تمنيتم أن تفقدوا العز أصيدا
أما أنا أعلى من تعدون همة وإن كنت أصبي من تعدون مولدا
إلى الله أشكو عصابة من عشيرتي يسيثونني في القول غيباً ومشهداً
وإن حاربوا كنت المجن أمامهم وإن ضاربوا كنت المهند واليدا
وإن ناب خطب ، أوألت ملمة جعلت لهم نفسى وما ملكت فدا
يودون ألا يبصروني سفاهة ولو غبت عن أمر تركتهم سدى
فعالى لهم ، لو أنصفوا ، فى جمالها وحظ لنفسى اليوم ، وهو لم غدا
أحمل أبو فراس لسيف الدولة موجدة لأنه أصفى إلى الوشاة ، ولم يسرع إلى
فدائه ؟ ليس فى أخبار أبى فراس ، ولا فى شعره ، ما يدل على أنه حمل هذه
الموجدة له فى قلبه ، اللهم إلا هذا البيت :

وأصبر ، ما لم يجلب الصبر ذلة وألبس للذموم حلة حامد
فقد يفهم منه أن الزمن قد اضطره إلى مدح سيف الدولة ، بينما قلبه يذمه
ويهجوه ، ولكنى أستبعد أن يكون ذلك مراد أبى فراس ، ولعله كان يشكو من
أن حياة الأسر ، فدفعته إلى حمد أناس ، لا يرى مدحهم حقاً ، أما سيف الدولة
فكل شعر أبى فراس فيه فى الأسر ، يحمل أصدق آيات الوفاء ، وأعرق عواطف
الإعجاب ، يقول له :

شريتك من دهرى بذى الناس كلهم فلا أنا مبخوس ، ولا الدهر باحس
وملكتك النفس الكريمة طائعاً وتبذل للعولى النفوس النفائس
وظل أبو فراس طول مدة أسره وفيها لابن عمه ، وإن كان فى أعماق قلبه
متألماً منه ، وها هو ذا يسمع أن الروم قد جمعوا جموعهم ، يريدون غزو سيف
الدولة ، فلا يلبث الأسير أن يرسل إلى الأمير نبأ ذلك الغزو ، ويحسب جنده ،
ويذكر لهم تاريخ آبائهم المجيد المليء بالنصر الموزر ، وهنا تجيش فى نفس الشاعر
ذكريات عنيفة ، فيأسى على أنه لا يأخذ مكانه بين الصفوف ، ولا يحطم سيفه فى صدر

عدوه ، ولنستمع إليه يكتب إلى ابن عمه بنجر الجيش الزاحف :
سيف الهدى ، من حد سيفك يرتجى يوم ، يذل الكفر للإيمان
هذى الجيوش تجيش نحو بلادكم محفوفة بالسفر والصلبان
ليسوا ينون ، فلا تنوا في أمركم لا ينهض الوانى انير الوانى
ولعله أراد أن يكون له نصيب في المعركة ، وما دام لا يستطيع أن يساهم
بسيفه ، فليساهم بلسانه وقلمه :

إن يمنع الأعداء حد صوامى لا يمنع الأعداء حد لسانى
وهكذا ظل وفيًا لسيف الدولة ، وما هو ذا يشاركه في الحزن على وفاة أخته ،
فيرسل إليه بتعزية تحس فيها بألم ، غير متصنع ولا متكلف ، وتلمس فيه الصدق
والإخلاص . والتعزية في أسلوب هادىء لا مبالغة فيه :

بى بعض ما بك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجد
لم يمنعنى بعدى عنك من حزن هى الموائسة فى قرب وفى بعد
لأشركتك فى البأساء إن طرقت كما شركتك فى النعماء والرغد
وأمنع النوم عيني أن تلذ به علمًا بأنك موقوف على السهد
هذا ، ولست أدري الوسيلة التى كان يرسل بها أبو فراس رسائله إلى الشام ،
وفى هذه الرسائل مالا يريد الروم أن يطلع عليه سيف الدولة ، وأستبعد أن يكون
أبو فراس قد أنشأ هذه الرسائل ليحتفظ بها لنفسه .

وبعد . فهل عزم سيف الدولة على أن يمهل أمر أبى فراس ، واستمع إلى
قول الواشين ، وصمم على ألا يفديه ؟

يظهر أن سيف الدولة قد اقتنع بعد حين ببراءة ابن عمه ، وأنه عزم على أن
يفديه ، ووعد به بذلك . وكانت قصائد أبى فراس تتعجله ، وفى ديوانه أن سيف
الدولة كتب إليه يعتذر من تأخير أمره ، وتسويفه له ، فكتب إليه أبو فراس :
بالكره منى واختيارك ألا أكون حليف دارك

يا تاركى ، إني لشكرك ، ما حييت ، لغير تارك
ولسنا ندرى متى عزم سيف الدولة على فدائه ، ولكننا نعلم أن أبا فراس
ظل في الأسر أربع سنين ؛ ويظهر لى أن ظن من ظن أن تأخير فداء أبى فراس
يعود إلى تشدد الروم ، وأنهم كانوا يريدون الاحتفاظ به أسيرا لجلالة قدره ،
وشدة بأسه ، يظهر لى أن هذا الظن ليس له ما يسنده ، بل على العكس يروى ابن
خالويه أن الروم قد عرضوا عليه الفداء في أول الأسر ، في مقابل إطلاق سراح
ابن أخت ملكهم ، وليس في شعر أبى فراس ما يشير إليه ، فتأخير الفداء يعود
إلى سيف الدولة وحده .

أثرت هذه الحياة السقيمة ولا ريب في جسم الأسير ، فملا الشيب رأسه ،
وكان الشيب قد زاره وهو لا يزال حدثا ، لم يزد على العشرين ، وانهارت صحته ،
حتى ليخيل إليه أنه بعد إطلاق سراحه لن يستطيع أن ينال من لذائذ الحياة شيئا :
وهأنا قد حصل المشيب مفارقى وتوجنى بالشيب تاجا مرصعا
فلو أننى مكنت مما أريده من العيش يوما لم أجده فيه موضعا
وبرغم مضى وقت طويل على أبى فراس في الأسر لم يفقد الأمل في النجاة ،
وكثيرا ما كان يناجى نفسه بهذا الأمل البعيد ، ويتخيل هذه الحرية التى ستدنيه
من آله ، وتعيد إليه حياة ، يكون له فيها مآثر ، في ميدان الحرب ، وميدان الكرم ،
وميدان المعالي :

فإن عدت يوما عاد للحرب والندى وبذل العلاء والمجد أكرم عائد
وقد حقق الله أمله ، ففي شهر شوال — على ما يظهر^(١) — سنة خمس
 وخمسين وثلاثمائة « تم الفداء بين سيف الدولة والروم ، وسلم سيف الدولة ابن عمه
أبا فراس بن حمدان^(٢) » .

(١) في هذا الشهر كانت المعركة بين الروم وسيف الدولة ، فيكون الفداء قد تم في
هذا الشهر أو في الشهر الذى يليه .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ .

وهنا تبدو ظاهرة قوية أحب أن أسجلها ، تلك هي أن أبا فراس لم يسجل في شعره شكر سيف الدولة على هذا الفداء ، وأن الشاعر قد استقبل الحرية التي طال انتظارها بشعر قليل ، لم يزد على أبيات ستة ، هي :

ولله عندي في الإيسار وغيره مواهب لم يخص بها أحد قبلي
حللت عقوداً أعجز الناس حلها وما زلت لا عقدي يرام ولا حلي
إذا عاينتني الروم كفر صيدها كأنهم أسرى لدى ، وفي كبلي
وأوسع ، أياما حللت ، كرامة كأي من أهلي نقلت إلى أهلي
فقل لبني عمي ، وأبلغ بني أبي بأنني في نعماء يشكرها مثلي
وما شاء ربي غير نشر محاسني وأن يعرفوا ما قد عرقت من الفضل

وهي أبيات تدل على أن أبا فراس قد بذل جهداً كبيراً في تحقيق هذا الفداء . وأحب أن أقف وقفة تنبين فيها ما ادعاه : من أن الروم كانوا يعاملونه معاملة حسنة ، حتى لكانه نقل من أهل إلى أهل ، وأنهم قد اعترفوا بفضله وهابوه ، وابن خالويه يروي عنه طرفاً من تمييزه بالمعاملة الطيبة ، فهم لم ينزعوا عنه ثيابه ، كما ينزعون ثياب الأسرى ، وفي ذلك يقول :

يمنون أن خلوا ثيابي ، وإنما على ثياب ، من دماهم حر

قال أبو فراس ^(١) : « لما حصلت بالقسطنطينية أكرمني ملك الروم إكراما لم يكرمه أسيراً قبلي ، وذلك أن من رسومهم ألا يركب أسير في مدينة ملكهم دابة قبل لقاء الملك ، وأن يمشي في ملعب لهم ... مكشوف الرأس ، ويسجد فيه ثلاث سجديات ، أو نحوها ، ويدوس الملك رقبته في مجمع لهم ... فأعفاني من جميع ذلك » . ولعل أبا فراس لاقى العنت في أول عهده بالأسر عند ما كان في خرشنة ، فلما مضى إلى القسطنطينية لم يعامل بعنف ولا بقسوة ، ولا سيما أن سيف الدولة

كان تحت يده ابن أخت الملك ، ولهذا لم نسمع من أبي فراس حديثا عن قسوة
في معاملة أسريه ، إلا وهو في خرشنة . ومهما يكن من أمر فلم يكن مثل أبي فراس
ممن يطبق حياة فيها حيلولة بينه وبين أمانيه .

ولعل السبب في قلة شعره الذي استقبل به الحرية ، يعود إلى أن هذا الأمل
قد فاز به الأسير بعد تطاول الزمن ، وفوات وقته ، وإن النفس لتستقبل الأمل
يجيء بعد فوات وقته بهدوء وفتور .
